ساحر الكتب

د. شادن شاهين

ظلُّ السراب

جائزة
الطيب صالح
للإبداع الكتابي
2022

مجموعة قصصية



عصير الكتب

ظلُّ السراب





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

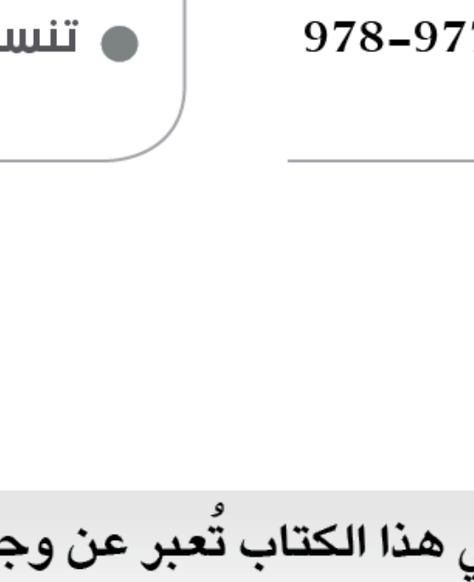
email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يناير 2023م
- رقم الإيداع: 2022/25518م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-174-7
- المؤلف: د. شادن شاهين
- تدقيق لغوي: محمود عاطف
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.




د. شادن شاهين
ظلُّ السراب
جائزة
الطيب صالح
للإبداع الكتابي
2022
مجموعة قصصية
عصير الكتب

إهداء

إلـى كـــل عـقـــلٍ لـــم يـــهـدأ ... ثـــم لـــم يصـل إلى شـــــيء

إلـى كـــل قـلـــبٍ لـــم يـــهـدأ ... ثـــم لـــم يجـــد أي شـــــيء

وإلى روحٍ لم تجد في زحام الحيـاة ... أكثر مما وجدت في وحشة الموت

شادن عبد الحميد شاهين

ظل السراب

كانت الشمس تلملم برفق خيوط النور التي افترشت واجهة الكاتدرائية العتيقة عازمة على الرحيل، حين وصلتُ إلى ساحة سان ماركو بقلب فينيسيا الجميلة.

ساحة القديس مارك، قصر دوجيز، المباني المتصلة في صفين أحدهما عموديٌّ على الآخر، هنا سكنت حكومة البندقية في عمق التاريخ.

كان إحساسًا لا يضاهيه شيءٌ أن تستقل آلة الزمن لترى العالم منذ مئات الأعوام، أصوات أساقفة أبرشية الرومان يتلون الصلوات في خشوع، جدالات المسؤولين الحكوميين، كلها ما زالت معلقة في فضاء الساحة تلتقطها أُذُنَاي كموجات راديو متداخلة، هنا التاريخ حيٌّ يلامس نبضه مَن كان له قلب.

تقدَّمَ عازف الكمان ليقدِّمَ عرضًا موسيقيًّا أمام المقهى المحاط بالكامل بزهور الأوركيد، مرَّرَ قوسه على الوتر تمريرة طويلة متصاعدة النبض، بدت لروحي نداءً لحوحًا مستحيل الصد.

برقت في مخيلتي لقطة عازف الناي الهندي الذي تسمع الأفعى نداءاتِه السحرية فترفع رأسها تلقائيًّا وتبدأ الرقص.

هكذا شعرت بجذور روحي تتخلخل بعنف عازمة على الاقتلاع والتحرر لتتبع اللحن.

يصبح للموسيقى مذاقٌ مثيرٌ حين تسمعها بينما أنت تائهٌ في طرقات الماضي البعيد، يلفك عبق أصالة التاريخ، تتسرب إلى أنفك رائحة القهوة الإيطالية، تسري الأنغام في دمك كالخمر فتوقظ فيك الرغبة في الذوْب والالتحام بها.

بدأ السائحون بالرقص، تعانَقَ كل اثنين وبدأ الحفل الذي لم يُعَدَّ له سابقًا.

كنت وحدي، أراقب ما يجري في سكون.. كروح غادرت جسدها لتطل على العالم من أعلى، وفجأة، ظهر أمامي، مد يده لي يدعوني لمشاركته الرقص، لم أتردد، كنت في حالة خدر، تشدني الموسيقى كمغناطيس عملاق والعالم حولي قد تحوَّلَ إلى حفل كبير.

أحاط خصري بذراعه اليمنى واضعًا ذراعه اليسرى خلف ظهره، راح يتمايل يمنة ويسرة فأتمايل معه، ندور بسرعة، أعيننا متصلة مثبتة، يبعدني فجأة فأدور حول نفسي بطول ذراعه

ثم أعود لأقترب منه من جديد، تتعانق كفانا عاليًا، ندور وندور، يحملني كَرِيشَة، يدور بسرعة فيطير طرف فستاني كمروحة ملونة ثم يضعني على الأرض، ونعود لندور.

لا شيء يشبه أن ترقص بكل روحك مع غريب قابلته في مدينة غريبة بلا موعد، ودون أن تسألَه عن اسمه أو وطنه قررت أن تشاركه لحظات فريدة من سُكْر الحياة وسُكَّرها.

تدور معه فتدور كل الأماكن في ذاكرتك، تصدق ما تقوله الموسيقى فتتبعها بكل كيانك، تنسى مَن أنت ولماذا أنت هنا، لحظات قصيرة من الانفصال عن مرارة واقعك والذوبان في حلاوة الحياة.

سكنت الموسيقى فصفَّقَ الجميع، صفَّقتُ بحماسة كطفلة من بين أنفاسي اللاهثة، ضحكَ وضحكتُ كما لم أضحك من قبل.

بدأ الجمع بالتفرق، تبادلنا ابتسامة لا تحتاج إلى كلام، رفعتُ حقيبتي من الأرض وأشرت إليه بكفي أيْ وداعًا، بادلني الإشارة وفي عينيه نداء.

عاودتُ التجول وحدي بالساحة، أخذتني القباب المصنوعة من البازيليك وفخامة العمارة البيزنطية.. فنسيت ضآلة واقعي، جرت عيناي النهمتان للجمال على تماثيل الأحصنة البرونزية والفضية والفسيفساء المذهبة في الأرضية.

لم أحبَّ يومًا المساحات البيضاء، بل أعشق الألوان الدافئة، تلك التي تنسدل بغموض على الجدران فتكسوها شيئًا ما، وتنسكب بجرأة على الأرض فتمنحها معنًى ما، فأشعر أنني لستُ وحدي، بل أرواح ما هنالك تلفحني أنفاسها، تطاردني إيحاءاتُها، تلف المكان.. فتملأ عالمي بالكلمات.

مضى بي الوقت بين المجوهرات واللوحات، وعند برج الأجراس، مظاهر الثروة والسلطة في أَوْجِهَا، مزيج فريد من سحر الشرق والغرب في تفاصيل مثيرة للجنون، نعم، التفاصيل هي كلمة السر.

رسوم السقف والجدران داخل الكاتدرائية تحبس الأنفاس، توقفت طويلًا أمام المذبح الرئيسي عند لوحة بالادورو الشهيرة، بريق الذهب والأحجار الكريمة التي رُصِّعَت بها ينقلك إلى عالم آخر، لم أستطع التحرك من أمامها، شعرت بأحدهم يقترب ويقف بجواري تمامًا، اِلْتَفَتُّ فإذا هو، رفيق اللحظات السكَّر.

ابتسم لي وهز رأسه بالتحية فابتسمت، تأملتُه بعناية للمرة الأولى، شعر أسود ناعم، لحية قصيرة، بشرة بيضاء مشربة بالحمرة، حاجبان كثيفان، عينان بنيتان فيهما حكايات كثيرة، توحي نظرتهما للرائي أن ثمة عاصفة مختبئة تنتظر لحظة ما من العمر كي تهب وتحرق.

ملامحه تحتمل جنسيات كثيرة، تراه يتحدث أي لغة؟ بادرته بالسؤال بالإنجليزية، فأجاب بلكنة عربية واضحة أنه من مصر، ضحكتُ بشدة، نظر إليَّ بدهشة وتابع بالإنجليزية أنه لا يفهم سبب ضحكي، رددت بالعربية:

- لأنني مثلك عربية من لبنان.

- مصادفة رائعة، لكن في الحقيقة عينيك الزرقاوين وشعرك البني...

قاطعته قائلة:

- ربما، لكن الروح عربية حتى النخاع.

ضحك كلانا.

حاولتُ تغيير دفة الحديث:

- ما رأيك بالكنيسة؟ ألا ترى معي أنه إبداع مما لا تشبع منه الروح؟

- بالطبع أتفق معك وأُقدِّر بشدة حاستك الفنية.

قالها بسخرية مضحكة، ثم تابع:

- ولكن كل ما أُفكر فيه الآن أنني جائعٌ للغاية وأدعوك لتناول فطيرة ساخنة في المطعم التركي القريب.

ضحكتُ قائلة:

- لا بأس، أنا أيضًا لم أتناول شيئًا منذ الصباح.

وفي المطعم كان البدء، حكى لي عن حياته وعمله وحبه للسفر واستكشاف العالم، كثير من التفاصيل غرقتُ بها، وكأنها وُجدت -فقط- ليحكِيَها لي، كان يتحدث بتلقائية وبساطة وكأنه يعرفني منذ عمر، وكأنه جاء هنا -فقط- ليلقاني!

وجدت نفسي أنصت إليه بشغف، أبادله الحكي عن نفسي، نفسي القديمة التي كدت أنساها في زحام الحياة، وكأنني كنت أستعيد معه تفاصيلي المهمَلة وأتذكر ما الذي كنت أحبه وأهتم به

قبل أن يجرفني التيار.. فأنساني.

كنت في حالة من صفاء الذهن الشديد، قدرة سحرية على شحذ أفكاري، نوع من الصعود الكبير والمفاجئ، وكأنني كنت لاعبًا قزمًا بين عشرات اللاعبين.. فأصبحت فجأة عملاقًا ضخمًا يرى الملعب كله من أعلى، حالة من الحكمة والسلام مع النفس والعالم كان بالضبط ما شعرت به.

حقًّا لا أعرف كيف حدث ذلك، كيف تؤثر الحوادث في الإنسان فتعيد ترتيب لبنات نفسه؟ كيف يمنحك لقاءٌ غريبٌ كل تلك المشاعر؟

انتهينا من الطعام فأخذتنا أقدامُنا بلا وعي ولا اتفاق لنكمل حديثنا على طرقات البندقية الساحرة بالليل، كنا نثرثر بلا توقف ونضحك كطفلين على كل بسيط.

توقفنا أمام أحد محلات الهدايا التذكارية الممتدة على طول القنال الكبير، اشتريت حقيبة جلدية لها ألوان علم إيطاليا تشتهر بها المدينة، واشترى هو مجسمين صغيرين على شكل كاتدرائية سان ماركو أو كما يسميها الإيطاليون «كنيسة من ذهب»، أعطاني واحدًا منهما وقال إنه لن يكون تذكارًا لزيارة الكنيسة فقط، بل الأهم أنه سيكون تذكارًا للقائنا الأول.

«الأول؟ يبدو أنه لن يكون الأخير». أسررتها في نفسي وابتسمتُ ابتسامة واسعة، شعرتُ أن الهواء البارد صار فجأة منعشًا للغاية، يداعب وجهي بِرِقة ليشارِكَني مشاعري اللذيذة بالحرية، لم أكن أفهم بالضبط طبيعة الحرية التي حصلت عليها، لكن ربما بعض المواقف تطلق الروح من سجن الجسد.

- الوقت تأخر، أخذنا الحديث.

قلتها بغير اقتناع وأنا أخفي مشاعري.

- حسنًا، أين تبيتين في البندقية؟ سأرافقك حتى الفندق، ثم نلتقي في الصباح لنزور معًا ممرات المدينة المائية. اتفقنا؟

أومأتُ برأسي علامة الإيجاب دون أن أرفع عينَيَّ إليه.

وعدت معه إلى الفندق، ودَّعَني بِرِقة وانطلق، واستسلمتُ أنا لنوم لذيذ.

وفي الصباح.. مزاجي -ذلك المجنون- كان متطرفًا، مختلفًا، ثائرًا على تاريخي.

حين رفعتُ جفنَيَّ بكسل، غمرتْ عينيَّ موجةُ نورٍ مرحة، داهمتْ كل أبوابي وشبابيكي الموصدة فاقتحمَتْها جميعًا وحررتْني.

اعتليتُها بسهولة دون وعي، وفي بضع ثوان غدوتُ حفنة فوتونات اِلْتَحمَت بشعاع الشمس لتسافر معه إلى الأبد.

الآن أستطيع أن ألثم كل الزهور لتتفتح وتضحك.. وألثم كل البذور المنثورة على الأرض السوداء فتتبرعم وتورق.. وألثم كل الأكف الباردة لتجد دفء الأصدقاء.. وألثم كل العصافير المختبئة بين جناحيها لتمدهما وتعلُوَ بعيدًا.

نهضتُ نشيطة من فراشي، ارتديت فستانًا أزرقَ هادئًا ورفعتُ شعري إلى أعلى بفراشة فضية، رغبت أن ينسجم مظهري مع أجواء البندقية الحالمة، وضعت عطرًا خفيفًا ووشاحًا رقيقًا حول عنقي، أخذت نفسًا طويلًا وأغلقت باب الحجرة ورائي.

التقيته في بهو الفندق، كان ينتظرني على طاولة جانبية مرتديًا قميصًا أصفرَ زاهيًا وبنطالًا أبيضَ قصيرًا ويجمع شعره بنظارته الشمسية.

حين رآني أشرقت عيناه، أو ربما أنا التي أشرقت، في تلك المواقف تصبح كثير من الفواصل باهتة وكثير من المعاني ذائبة بين دفتي حنين.

وتمشينا معًا نحو القنال الكبير، استأجرنا قاربًا من تلك القوارب السوداء الضيقة التي ترتفع مقدمتها ومؤخرتها وتتزين من الداخل بفرش ملكي يليق بِطلَّتي هذا الصباح، وبدأت جولتنا في ممرات المدينة المائية.

مَرَّ القارب بنا تحت جسر ريالتو الشهير بأحجاره القديمة الصامدة الشاهدة على حكايات المدينة وأوجاع التاريخ لبضع مئات من السنين، ثم عرج بنا إلى القنوات المائية الضيقة بين البيوت الأثرية، لم أتصور يومًا كيف تكون الحياة في مدينة عائمة، ولا كيف يمكن أن تأخذنا الأماكن إلى عمق الماضي.

وبينما أنا سارحة بأفكاري بين الزمان والمكان، أَخْرَجَ رفيقي الجيتار من حقيبة الظهر وبدأ يغني بصوت عذب «إيطاليانو فيرو» أحد أشهر أغاني إيطاليا:

«دعوني أغني، وجيتاري في يدي

صباح الخير إيطاليا مع الاسباجتي الخاصة بك

وطائر الكناري الصغير فوق النافذة

صباح الخير إيطاليا بفنانيك

بالشعارات الأمريكية الكثيرة على ملصقات الإعلان

بالأغاني المغناة بحب

بالقلب

صباح الخير ماريا بعينيك المليئتين بالحزن»

كنت أغني معه بصوت خفيض يمزج الضحك بالدموع ويتماسك بمعجزة، وعند نهاية كل مقطع يطلق قبطان سفينة الحلم صيحة حماسية تمتزج بضربة وتر عالية: «إيطاليانو فيروووو».

صوت الجيتار، خرير الماء الذي يدفعه المجداف حول القارب، الجسور فوق القنوات الضيقة، الهواء اللذيذ، أنا والرفيق والحلم... وكفى.

مَرَّ الوقت سريعًا جدًّا، وكأن الساعة أصبحت دقيقة، والدقيقة صارت ثانية، حتى أنزلنا القارب حيث انطلقنا أول مرة فأفقتُ من حلمي، كانت النشوة تجتاح جسدي كموج من ورائه موج، وعلى شفتي ابتسامة لا تذوي.

- ما رأيك بالتقاط صورة من فوق جسر ريالتو؟

هززت رأسي علامةً على الموافقة، صعدنا معًا السلالم الضيقة التي يتزاحم عليها السائحون صعودًا وهبوطًا من الجانبين، وقفنا معًا نراقب من عَلٍّ القوارب الصغيرة ذات الأرائك المزينة بالقطيفة الحمراء والطلة الملكية، بدت هاربة من صفحات أسطورة، تموجات الماء الهادئة كانت تلتمع تحت أشعة الشمس.

همستُ دون وعي: «لا أصدق أني أعيش تلك اللحظات».

قال دون أن يلتفِتَ لي: «في الحقيقة أنا مثلك وأكثر، هي أيام من العمر ليست كالأيام».

ابتسمتُ ولم أُعقِّب.

تنحنح كأنما يهرب من شيء، ثم اقترح أن نبتاع بعض المثلجات.

نزلنا معًا السلالم الحجرية، وعلى بعد خطوات ابتعنا كوبين وعدنا للتجول على طول القنال.

- زحام البشر لا يهدأ ليلًا أو نهارًا في المدينة العائمة.

قالها متأملًا وعاد بسرعة إلى حكاياته في مصر، وعدت أنا إلى أحلام اليقظة.

مرت أيامنا الستة في البندقية، نقضي اليوم كله معًا وفي المساء أرقص البالية داخل كل مصابيح المدينة، نفترق للنوم في وقت متأخر، ثم نلتقي في الصباح مجددًا، حتى حفظتْ شوارع البندقية وجهينا، ضحكاتنا، وربما أيضًا حكاياتنا.

- مرَّ الوقتُ بسرعة، كنت مخططًا لزيارة ميلان، ما رأيكِ؟

- روما أو ميلان لا فارق، إيطاليا كلها سحر، حسنًا سأسافر معك.

وفي المساء، كنا متجاورين في القطار السريع المتجه إلى ميلان، لماذا يحدث كل شيء بسرعة؟ دون تفكير أو تخطيط، لماذا نتحرك أحيانًا في الحياة مسلوبي الإرادة؟ تقودنا مشاعر لا نفهم كنهها ولا أين تذهب بنا، لكننا نتبعها على أى حال.

أطال النظر من النافذة إلى المساحات الخضراء الممتدة وقطعان البقرات البيضاء ثم قال: «الطريق طويلة إلى ميلان».

- فعلًا، لكني أعددت خطة.

ضحكتُ وأخرجت من حقيبتي كتابًا لمحمود درويش، شاعري المفضل.

التقط الكتاب من يدي في حركة مداعبة: «هل تحبين الشعر؟».

قلتُ ضاحكة: «بالتأكيد لا... بل أعشقه».

ابتسم وفتح أولى صفحات الكتاب، جرت عيناه على السطور يستكشفها بسرعة، نظر إليَّ بِرِقة وطلب مني أن أقرأ لأُسمعه.

تناولت الكتاب بارتباك، بدأت القراءة بصوت خفيض، وكأنني أخشى أن يسمعَني أو يشعُرَ بي، صوب عينيه نحوي، فمشيت إليه بلا إرادة، رحتُ أقرأ بحروف مرتجفة، وعيناه مثبتتان على شفتي:

«يُعلِّمُني الحُبُّ ألَّا أحِب، وَأَنْ أفْتَحَ النَّافِذَهْ

عَلَى ضفَّة الدَّرْبِ. هَل تَسْتَطيعين أنْ تَخْرُجي مِنْ نداءِ الحَبَقْ

وَأَنْ تقسمِيني إلى اثْنَيْن: أَنْتِ، وَمَا يَتَبَقَّى مِنَ الأُغْنِيَهْ؟

وَحُبٌّ هو الحُبُّ. فِي كُلِّ حُب أرى الحُبَّ مَوْتًا لِمَوْتٍ سَبَقْ،

وَرِيحًا تُعَاوِدُ دَفْعَ الخُيُول إلَى أمِّهَا الرِّيح بَيْنَ السَّحَابَة والأَوْدِيَهْ

أَلَا تَسْتَطِيعينَ أَنْ تَخْرُجِي مِنْ طَنينِ دَمي كَيْ أُهَدْهِدَ هَذَا الشَّبقْ

وكَيْ أُسْحَبَ النَّحْلَ مِنْ وَرَق الوَرْدَةِ المُعْدِيهْ؟

وَحُبٌّ هو الحُبُّ، يَسْأَلُنِي: كَيْفَ عَادَ النَّبِيذُ إلَى أُمِّه واحْتَرَقْ

وَمَا أعْذَبَ الحُبِّ حِينَ يُعذب، حِينَ يُخرِّب نَرْجسَةَ الأُغْنِيَهْ

يُعَلِّمُني الحُب ألَّا أُحِب، وَيَتْرُكني في مَهَبِّ الوَرَقْ»

مد يده لي، فصعدت درجتين، فأجلسني على العرش، توَّجَني في حفل أسطوري، أحياه آلاف العشاق، قرأنا حكاياهم معًا في صفحات الكتاب.

كان يقلب الصفحات، يختار قصيدة ثم يطلب أن أقرأ، ويظل يراقب شفتي بلا ملل، وحين أنتهي من القصيدة أصمت.. فيبتسم، ويعود ليقلب بين الصفحات، فالشِّعر إدمان، وفك شفرته حصريٌّ لمن تذوق عسل الحب.

ومَضَتْ بنا الطريق، أود ألا تنتهي، كيف يفعل القرب بنا كل تلك الأفاعيل؟ كيف لضمة روح في ساعة تيه أن تُسَلِّمَك فورًا لباب الخروج؟!

أخرجني من الجنة صوت سائق القطار يردد بآلية تنبيهات الوصول بالإيطالية ثم بالإنجليزية.

محطة قطار ميلان، ازدحام رغم تأخر الوقت، وجوه تحمل ملامح من شتى بقاع الأرض.. يجمعها حب الحياة والرغبة باستكشاف العالم.

سرنا معًا صامتين، وماذا يمكن أن يقال بعد رحلة الحلم؟ وصلنا إلى الفندق، انتزعتُ نفسي من مداره انتزاعًا حين ودَّعَني على باب غرفتي: «أحلامًا سعيدة» قالها... ومضى.

حين عرفتُه وجدتُه، مددتُ يدي فملكني، تنفس فأغرقني، ثم سكن، فطفوت على روحه، ثم ابتلعني إلى الأبد.

حالة من الوجد غارقة فيها حتى النخاع، أسبح وحيدة في بحر هادئ، أمواجه تطل برؤوسها على استحياء ثم تخفضها ببطء وهدوء، تعبر فوقي النوارس صامتة تمامًا، وتسقط حبات المطر

فلا تطرق سطح البحر، بل تلمسه بِرِقة ثم تذوب فيه.

لا صوت أبدًا في ذلك العالم، لا صوت سوى دقات منتظمة هادئة تنبع من صدري، ويتردد صداها في أرجاء الكون. وأخيرًا، غرقت في النوم.

وفي الظلام الدامس المهيب التقت خلايانا، تعانقت بلهفة جارفة بلا أذرع فالتصقت التصاقًا، التهمها الشوق وأذابها الحنين، حتى التحمنا فصرنا واحدًا بعد اثنين، ومضى وليد الحب الذي ضم خلايانا في كيان يستحيل انفصامه، مضى يتدحرج بدلال بين أحشائي وينقسم ويتكاثر ويتمايز وينمو، غدًا يصير طفلًا، روحًا جديدة، نصفها أنا ونصفها هو، غدًا يغادر ظلمة أحشائي إلى ضياء العالم.. فأنظر إلى عينيه.. ليتمثل لي لقاؤنا السري، حين حدثت معجزة الحب.. وابتلعته شوقًا.

رن جرس الهاتف فهببتُ من النوم.

- الساعة الثامنة وما زلتِ نائمة؟

- آسفة فقد كنتُ مرهقة للغاية وغرقتُ بنومٍ عميق. عشر دقائق وتجدني في البهو.

يا كلماته السكر، هيا اقفزي في فنجان شوقي، وإلا سأذوب أنا قبل أن تذوبي.

والتقينا مجددًا على مائدة الإفطار، فنجان قهوة وملعقة سكر، ضمة عين ورشفة حب، هكذا كان اللقاء، للحب دبيبٌ خافتٌ، ترصده آذان القلوب الجائعة.

العيون لا تخبئ أسرارها، بل تشي بكل ما استتر في حنايا القلب، يصمت العالم ليفسح لبوحٍ تعجز عنه الكلمات، لغة العيون، وما أدراك ما لغة العيون، أعقد اللغات لدى غريب.. واللغة الأم لقلب عاشق.

المزيد من رشفات القهوة، ملعقة تصطك بالكوب لتدارِيَ رعشة اليد، ضمة عين ثم رشفة حب، والمزيد من السكر.

وانطلقنا معًا في شوارع ميلان إلى ساحة دومو.

كاتدرائية ميلان ذات الثلاثة آلاف تمثال على الطراز القوطي، ثالث أكبر كنائس العالم، غاليريا فيتوريو إيمانويل الثاني، السوق ذات السقف الزجاجي الملون والأرضية المغطاة بالفسيفساء المدهشة، هنا يعانق التاريخ الحضارة في أجواء من السحر.

شارع مونتي نابليون، شارع دانتي، القصر الملكي.

هكذا مر الوقت معه، ستة أيام أخرى في ميلان، أحاديث لا تنتهي، صرت أحفظه كما لا تحفظه أمه، أفهم ما يريد دون أن ينطق بحرف.

لم أكن أعلم يومًا أن عقرب الساعات يمكنه أن يزحف بهذه السرعة فيلتهم من زمني كل ما وددت أن أعيشه.

صرت حين أغادره، لا تفارق صورته خيالي، تطاردني عيناه طيلة الوقت، ربما أبتسم فجأة أو أضحك حين أتذكر إحدى دعاباته، أحلامي يقتحمها بلا استئذان، يهيم في مسالك روحي ويكسر كل الأبواب، يصير المحظور مباحًا والمستحيل ممكنًا.

عشت معه في خيالي ألف قصة، بطلاتها لهن ألف وجه وألف ثوب وألف ابتسامة، وكلهن يملكن قلبي.

كنت أنسج قصة في كل ليلة وأحدد الأدوار، أقرر متى يصرح البطل بحبه، ومتى يُقبِّل البطلة.

متى تغضب.. ومتى تضحك، متى ينظر إليها، متى تلتقي أكفهما.. ومتى تفترق، لكني قط لم أعرف قسوة أن يُغلَق الستار، فكنت أتركه دائمًا مفتوحًا وأبدأ نسج قصة جديدة أهرب في تفاصيلها من غموض النهايات.

الحب، الحب يسري في عروقي كالنار، لا أعرف كيف استسلمت له، جمرة عشق مشتعلة مغطاة بالرماد، تنتظر ريحًا عمياء تَهُبُّ في لحظة لتتوهج شوقًا بلا ستار، كنت أنتظر تلك الريح وأخشاها، تُرى أيهما أشد على القلب، الخوف أم الشوق؟!

لا أطيق الصبر، فقد كان طويلًا ذلك الذي مَرَّ من عمري قبل أن أجده، مرهِقة تلك الأكوام المخبوءة في قلبي من مشاعر حتى أتت تلك اللحظة من العمر، رغبتُ بشدة أن أتكشف أمامه، أتكشف من كل ما لففته حولي من جدر فيراني أكثر مما أرى نفسي، يراني فلا أخجل أبدًا، فعيناه تحجبانني عن الآلام، تلفانني بخيوط الذهب فألمع كَنَجْم، كمخلوق وضع عنه جلده القديم وخرج بآخر جديد زاهٍ.

أحسست بضرورة أن يسمِّيَني اسمًا جديدًا، فأنا لم أعد هي، بل صرت أنا، أخيرًا أنا.

راقني أن يسمِّيَني وردة، فقد تفتحتُ حين روتني كلماته، أو يسميني أنا، فلأول مرة أعرفني.

لكنه ما زال صامتًا، لم يقلها، تُرى...!

قطع أفكاري صوته الحنون: "فيم تفكرين؟".

- لا شيء، أفكر في أن أُطعِم الحمام، الجلوس في ساحة دومو يذكرني بسان ماركو.

- لا شيء يشبه سان ماركو.

قالها بلهجة ذات مغزى، أو ربما خُيِّل لي ذلك.

تغير وجهه إلى ملامح الجدية ثم قال: «يبدو أن الوداع قد حان، غدًا لا بد أن أعود إلى مصر، أعمال طارئة ويستدعي الأمر حضوري الفوري».

«الوداع؟» أُرتِج عليَّ.

ترددت الكلمة في عقلي مرارًا وعلا صداها.

أفقت من سكرتي فنفضت عن رأسي أحلام الحياة، سقطت كطير محلق فوق السحاب هيض جناحاه، سقطت أدور حول نفسي أمد يدًا كغريق، لا شيء أتشبث به ولا شيء هناك البتة، خواء يلفه خواء.

- ما رأيكِ بحفلة وداع صغيرة في قاعة حفلات الفندق الليلية؟

- حسنًا.

قلتها بصعوبة بالغة ولم أزد.

التقطنا صورة مع كاتدرائية ميلان ونحن نطعم الحمام، بدا لي أن موقعي في الصورة خالٍ كأفلام الخيال، هذا ما يحدث ببساطة حين تكون على حافة الفقد، فيصبح الإيمان باستمرار وجودك صعبًا والعدم أقرب إليك.. وقررنا العودة إلى الفندق.

- سأتركِكِ قليلًا لترتاحي وأحزم أنا أمتعتي، أراكِ في السابعة.

صعدتُ إلى حجرتي، جلست على طرف الفراش أحدق إلى الفراغ وأقبض على كتاب محمود درويش.

تذكرت إلحاح رفاقي على مشاركتهم رياضة تسلق الجبال وإصراري الدائم على الرفض.

فكرة أن تصعد وتصعد حتى تصل إلى نقطة بعيدة ثم تفقد طاقتك، فيصير الاستمرار غير ممكن، بينما العودة إلى الأرض ضرب من المستحيل.

ماذا تفعل حين تقترب حد الإدمان، ثم تكتشف فجأة أن البعد قدر؟

مضى الوقت باردًا طويلًا، لا شيء غير السقوط في هاوية الأفكار، حتى تَعَانَقَ العقربان عند السابعة مساءً، حسنًا، لقاؤنا الأخير.

نزلت إلى القاعة وقد ارتديت ثوبًا رماديًّا طويلًا وتركت شعري ينسدل بلا رباط على كتفي، كانت قدماي تكادان لا تقويان على حملي، تزين عينَيَّ هالةٌ من الحزن بديلًا عن مساحيق التجميل، ويحيط عنقي عقدٌ من اللؤلؤ أقنعت نفسي أنه سبب شعوري بالاختناق.

كانت الموسيقى الإيطالية الكلاسيكية تصدح في المكان، كثير من العيون تثرثر حين تصمت الشفاه، ضحكات كثيرة لا أحد يعلم ما قد تخفيه من آلام.

أسرع ناحيتي حين لَمَحَنِي عند الباب، وقفنا للحظات، لا أعرف ماذا أخبرته عيناي، لكنه تنحنح محاولًا الهروب من الموقف: «هل تسمحين لي برقصة أخيرة؟».

نظرت إليه في حيرة، فأخذني من يدي دون أن ينتظر الرد.

هبت عليَّ أنفاسُه كريح عاتية، كتمتُ أنفاسي في صدري بكل قوتي، وضغطتُ يده بيدي بقوة، لعلي أتماسك ولا تتبعثر أجزائي.. فتحملني أنفاسه الشرسة بعيدًا عن أرضي، عن هويتي، فأنساني.

كان موج الشوق عاليًا.. يلطم روحي كلما تكسر على شاطئ اللقاء، درنا معًا على موسيقى النهاية، كان فستاني يدور كلما قربني وأبعدني، وكانت تدور معه أحلامي المنتشية بخمر الوداع.

كنت أغوص في عينيه بكل كياني لأنهل منهما للمرة الأخيرة، أرقص وأبتسم ودموعي ملء القلب.

ابتسامته الأخيرة... نظرته الأخيرة... لمسته الأخيرة...

ما أصعب النهايات!

سكنت الموسيقى فلملم شعري بِرِقة، لثم أطراف أناملي، فسقطتُ في فوهة بركانه، جلسنا إلى المائدة، عجزت عن الكلام.

- أرجو ألا تنسيني.

- أنساك؟!

قاومت بمعجزة شلال الدموع الذي يقاتل للانهمار.

ابتسم، ونظر إليَّ نظرة طويلة، كان في عينيه كلامٌ كثيرٌ، بينما لا تتحرك شفتاه، بعد لحظات من الصمت همس لي:

- ثمة أشياء من الصعب قولها، أن تلتقِيَ رفيقًا يشبهك، بلا موعد، على أرض غريبة، لتجد لديه كل ما افتقدته وبحثت عنه يومًا، حتى تجد لديه نفسك، فهذا لا يتكرر في العمر مرتين.

أحسست أن روحي تنسحب وأن ضربات قلبي يسمعها الجالسون على الطاولة المجاورة.

- لكن القدر دومًا له حساباته، هناك أشياء...

قاطعته واضعة أطراف أصابعي على شفتيه: «كفى».

مد يده لي، فضغط أصابعي المرتجفة في حنان، ثم تركها بسرعة، وقد تمنيت لو يحتويها ما بقى لي من عمر.

امتد بنا الحديث لساعات طوال، كان يحكي لي كما تعودته، كما لو كنا سنلتقي في الصباح، كما لو كانت ليلة من لياليا الفائتة، كان وجهه حياديًّا لا يبدو فيه أثرٌ لحزن، تُرى هل هو هوان الرفيق.. أم جلال الفراق؟

لكنني هذه المرة لم أكن كعادتي، كنت أنظر إلى عينيه فلا أراه، يأتيني صوته مختلطًا بكل ضوضاء العالم، كنت كَمُعَلَّقٍ بين السماء والأرض، لا رغبة لديه في الحياة، ولا يمتلك شجاعة الموت.

كنت أنظر إلى الساعة كل حين دون وعي، لا أعرف إن كنت أستجديها التمهل، أم أستجديها الخلاص!

حتى سكتَ، فصمت العالم، وصمت رأسي، فأخفيت عينَيَّ كي لا تفضحَ ما في القلب.

لحظات طويلة من الصمت، ثم تمالكت أعصابي ونطقت وكأنني خلقت من فولاذ: «الوقت تأخر، تحتاج إلى الراحة قبل رحلة الغد».

قلتها وقمت من مقعدي مباشرة حتى لا أعطِيَه فرصة لاستبقائي، فقد نفد احتمالي، ظهر في عينيه تردُّدٌ قصيرٌ ثم قام هو الآخر.

خرجنا من القاعة وأوصلني إلى حجرتي كما تعودنا، وقفنا لحظات صامتين، ثم همس:

- حسنًا، تصبحين على خير.

- تصبح على خير. وداعًا يا رفيق الحلم.

التقط يدي وضغطها بِرِقة، ثم مضى، التفت بعد بضع خطوات، ثم انحرف ليغيب عن ناظري.

بقيت وحدي أحدق إلى مكانه الخالي وبين ضلوعي ألفُ سؤال.

فتحت باب الحجرة بصعوبة بالغة، ألقيت بنفسي على الفراش، لماذا الليلة يبدو الضوء أسودَ والهواء ثقيلًا كحجر؟

دسست وجهي في الوسادة، ضغطته بشدة وكتمت أنفاسي، كنت أحاول أن أوقف رأسي عن الدوران، أن أوقف الفيلم الراكض في مخيلتي، أن أعود إلى قبوي المظلم لأرقد به في سلام.

لكن رأسي كان يدور بسرعة جنونية وتتصادم فيه صورٌ مفزعةٌ من الماضي والغد يختلطان بالآن، ابتلعت حبة منومة، لعلها تنقذني من جحيمي.

سقط رأسي أخيرًا على الوسادة، فوجدت نفسي في مكان مقفر، وحولي وجوه مخيفة وكلاب ضخمة شرسة وسورٌ عالٍ يسجنني معهم، جريت بكل طاقتي وتسلقت السور بصعوبة بالغة حتى وصلت إلى أعلى السور خائرة القوى، والوجوه المخيفة تكاد تلحق بي، التقطت أنفاسي ونظرت فوجدت وراء السور سورًا آخر أعلى منه، صرخت وهببت من النوم غارقة بعرق غزير وضربات قلبي تكاد تشق صدري.

كانت الرابعة قبل الفجر، اعتدلت جالسة على الفراش، لا هروب من الحزن، الحزن سجين معي في زنزانة العمر، يا صاحب السجن إذا كنت قدري فرفقًا بي.

قمت بصعوبة، اتجهت إلى الحمام، صدمت وجهي الملتهب بحفنة من الماء البارد ورحت أحدق إلى المرآة.

انزلقت قطرات الماء الباردة على وجنتي ثم سقطَتْ دون أن تأخذ معها شيئًا من حرارة قلبي.

رأيت في حدقتي لقاءنا الأول، خطواتنا معًا في سان ماركو على أنغام الكمان وطرف ثوبي يدور، لقاؤنا في كنيسة من ذهب، جسر ريالتو، القارب الملكي، إيطاليانو فيرو على أنغام الجيتار، رحلة القطار إلى ميلان وقصائد درويش، الحمام عند كنيسة ميلان، ثم رقصتنا الأخيرة... ولمسته الأخيرة.

دارت بي الدنيا بسرعة فسقطت على الأرض.

يقولون إن بعض الفقد يمكن تعويضه بينما البعض الآخر لا، والحقيقة أنه لا يمكن تعويض أي شيء.

كل ما نفقده يترك أثرًا، أخدودًا في سهل العمر، نقرة في خد الروح الأسيل.

تحاصرنا في أحلامنا ذكرى كل ما فقدناه، تأتي في صورة حرب نحن فيها أسرى، أو طريق نهرول فيها مسرعين بأثواب الطفولة يطاردنا شيءٌ ما، أو جبلٌ نسقط من قمته، وفي كل ليلة نسقط من جديد.

تسلل ضوء الفجر على استحياء عبر النافذة فانتبهت، اعتدلت جالسة بصعوبة، مسحت الإرهاق عن وجهي وقمت وقد اتخذت قرارًا بالعودة إلى لبنان.

جمعت حاجياتي بصعوبة من الحجرة، أخرجت من حقيبتي مجسم «كنيسة من ذهب»، نظرت إليه طويلًا: تردد صوته الدافئ في ذاكرتي: «لن يكون تذكارًا لزيارة الكنيسة فقط، الأهم أنه سيكون تذكارًا للقائنا الأول». ابتسمت بمرارة.

العطش، وحده العطش يدفعنا إلى التيه في صحراء العمر باحثين عن قطرة رواء، عن أثر خفيف لأحلامنا، عن علامة لها ألفُ احتمال، عن ظل، وإن كان ظلًّا لسراب.

ضممت المجسم إلى صدري ثم تركته على الطاولة، انتزعت يدي بصعوبة، حملت حقيبتي، ألقيت عليه نظرة أخيرة وأغلقت خلفي باب الحجرة، نزلت على السلالم ببطء، أدندن من بين دموعي: «صباح الخير إيطاليا، صباح الخير ماريا، بعينيك المليئتين بالحزن».

هروب ظل

ظلي، ذلك الخبيث، يشبهني جدًّا، يتبعني أينما ذهبت ويمشي خطواتي نفسها دون أن يصدر صوتًا، وكلما توقفت فجأة والتفتُّ خلفي لأضبطه أدار وجهه متظاهرًا أنه لا يقصدني، لا يمكنني الإفلاتُ منه أبدًا.

ذلك الصباح.. كانت الغيوم الرمادية المغبرة بالسواد تحتل السماء، فانطلقتْ أشباحُ ذكرياتي السجينة تتزلج بِحُرِّيَّةٍ على حوافها الفضية.

كانت السحبُ الخبيثة تُحاول أن تعبثَ بأعصابي، تتدافع وتلتحم فتتشكل وجوهٌ من الماضي ترمقني بغضب، تتهمني بالسلبية وبأنني أنا الذي فارقتُ أحلامي.

تلتحم الوجوهُ في غيومٍ أكبر، تتشكل أمكنة تُخفي وجه الشمس، ثم تبدأ بالاحتضار بين زخات المطر. لم يبدُ لي عصف الريح غاضبًا مخيفًا، بل بدا لي جريحًا مستغيثًا في لحظة سقوط.

لا أثر لقلبي، بل آلة معطلة أصابت سحب الشتاء سطحها ببرودة الموت وسكونه، لا أثر لعقلي، شرائط من الصور تعرضها بسرعة مذهلة آلة سينمائية من القرن الماضي دون أن تترك فرصة للتوقف أمام أيٍّ منها، ممنوع التفكير، فقط شاهد وتذكر ما حدث، بلا وعي، بلا مشاعر.

لا أثر لحياة إلا قلم سقيم ينقل ما تبقى على لوح الروح المحفوظ إلى كومة من الأوراق بحرف مهتز ضبابي ومسافات فارغة كثيرة وأخطاء لا حصر لها، ربما تُبكي أكثر من خطأ آدم.

لم أخبر أحدًا عمَّا بي حتى لا أعطِيَ ظلي الفرصة ليعرف أسراري، ذلك اللئيم، ظننت أني نجحت في خداعه، لكني كنت واهمًا.

كان عليَّ إتمامُ بعض المهام في الجانب الآخر من البلدة، نحيت كل ما برأسي جانبًا ونزلت من البيت، توجهت لعبور شريط القطار، كان القطار قادمًا من بعيد كوحش أسطوري يهم بالانقضاض على فريسته، شعرت ببعض قطرات العرق تنسال على جسدي رغم برودة الجو، اقترب القطار، اقترب، وفجأة، وعلى حين غفلة مني، ارتمى ظلي تحت عجلاته، صرخت بأعلى صوتي، حاولت أن أشده بعيدًا، لكن القطار كان قد مر بالفعل وسحقني.

كان شعورًا فظيعًا، وقفت هنيهة أحدق إلى ظلي بعد مرور القطار، هل بَقِيَ منه شيء؟ فإذا به يتظاهر بأن لا شيء به، يكذب ويراوغ حتى في لحظات احتضاره، مضيت مجرجرًا جثتَه

خلفي على الطريق وقد ظننت أني تخلصت منه إلى الأبد، لكن للقط سبع أرواح كما يقولون وسرعان ما عاد ليثبت لي أن لا شيء يهزمه.

كنت مع زوجتي في محطة الحافلة وبدا أن الانتظار سيطول، وكانت الشمس حامية، قررت أن ألِقيَ بظلي على وجهها لأحمِيَها، رحت أميل في كل اتجاه محاولًا أن أوجهه ناحيتها، لكني فوجئت أن ظلي قصيرٌ جدًّا، لا يمكنه كفُّ شعاع الشمس عن عينيها، الشمس تتوسط السماء وظلي ينزوي هاربًا تحت قدمي.

تراه انكمش متعمدًا حين لمس احتياجي إلى وجوده للمرة الأولى؟ وماذا عساك تفعل حين يكون ظلك هو عدوك اللدود؟ يراوغك ويعرف كيف يكسرك في اللحظة المناسبة، تراجعت خجلان والشمس تخرج لي لسانها لتغيظَني.

وليتها كانت آخر ألاعيبِه، فذات نهار صيفي حار، كانت زوجتي تعاني آلامًا شديدة بالظهر، حاولتْ مرارًا النوم بلا جدوى بسبب صوت تلفاز الجار الذي أَصَرَّ أن يصدَحَ بأغانٍ صاخبة منذ الصباح الباكر.

طرقتُ باب الجار ففتح لي رجل عملاق أصلع وردي البشرة كث الشارب له عينان واسعتان كحيلتان لا يرتدي سوى ملابسه الداخلية، ارتبكت حين رأيته وكأنني طرقت بابه في الوقت غير المناسب، سألني عما أريد بصوت خشن تتشابه حروفه وتندمج في لا مبالاة، تلعثمتُ قائلًا إن صوت التلفاز عالٍ أكثر من اللازم وطلبت منه بأدب شديد أن يخفضه.

ضحك الرجل بصوت جهوري وأمسكني من ياقة منامتي كجرذ ثم سبني بأقذع الألفاظ مهددًا إياي بالفرم لو أنني تجرأت على إزعاجه مرة ثانية، تصبب العرق على جسدي كله وعجز لساني عن الرد، ذراعاه المفتولتان جعلتاني أتيقن من جدية التهديد، ظهرت زوجتي فجأة على عتبة الباب وهي لا تكاد تتمالك نفسها، تقدمت منا وسحبتني إلى داخل الشقة دون أدنى مقاومة مني، حتى إني خشيت أن أتظاهر بالمقاومة فتصدقني وتفلتني، تركتها تسحبني بسلاسة كغنم شاردة يعيدها صاحبها إلى الحظيرة، تشيعني ضحكات الجار الذي يبدو أن ذُلي أطلق دفقة من هرمون السيروتونين في عروقه فانتابته حالة من البهجة الزائدة.

أغلقت زوجتي الباب، فتكومتُ في زاوية الأريكة لا أنطق، خفت أن تلتقِيَ عيناي عيناها، ويبدو أنها خشيت ذلك هي الأخرى، فتركتني وعادت إلى فراشها صامتة.

ولكني منذ ذلك الوقت أسير في حارتنا وظلي مكسور، نصفه على الجدار ونصفه على الأرض، تقول زوجتي إنه كان كذلك طوال الوقت وأنا الذي لم ألحظْه، لكني لا أصدقها، فهي لا تدرك سر لعنة ظلي، لا تعرف أنه قادر على تغيير قوانين الفيزياء من أجل أن يغيظَني، رسائله الخبيثة وحدي أفهمها.

ومهما تغيرت الجدران، ومهما تغيرت المدن، ينكسر ظلي على كل جدار ليذكِّرَني بجاري اللعين وبكل الذين استضعفوني وآذوني، فتتردد في أذنَيَّ ضحكاتهم العالية ويمر أمامي طيف عينَيْ زوجتي وهما تتجنبان لقيا عينَيَّ.

مَرَّ الوقت، ولم يعتدل ظلي، ظلي وزوجتي والخوف، الثلاثة الذين هدموني.

صرت لا أتكلم معها ولا تبدأ هي الحديث، ولا يُسمع في بيتنا سوى صوت الجارة التي تجلس عندنا لساعات، لا أعرف لماذا كلما نظرت إليها رأيت رأس قرادة، نعم تلك الحشرة التي تعَوَّدَ الناس على استخدامها للدلالة على قوة الالتصاق، فهي تلقي بوزنها كله فوق صدر محدثها لتسكب في مسامعه كل ما يروق لها حكايته، لا تلتفت إلى اهتمامه بالحديث أو وقته، لا يعنيها ماذا يريد هو، المهم أن تنجح في تكبيله إلى ساريتها وإجباره على الاستماع حتى النهاية، ولا مانع من إجباره على الضحك أيضًا على دعاباتها السخيفة التي تقضي وقتًا طويلًا في شرحها وتبريرها وضرب الأمثلة ثم تنتظر في النهاية أن يضحك محدثُها.

وحين لا يضحك بالشكل المنتظر، يصير لزامًا عليه أن يتحمل إعادة شرح الدعابة، لعله يصلح خطأه ويضحك هذه المرة، ويا له من عقاب!

ذلك اليوم كنت ممدَّدًا على الفراش، أراقب ظلي بجواري على الحائط بطرف عينَيَّ، لا شيء في عالمي سوى صوت الجارة وضحكاتها المثيرة للأعصاب، حين بدأ يتسلل إلى مسامعي صوت بوق مخيف يأتي من بعيد، يشبه ذلك الذي كان يطلق أيام الغارات ليهرع الناس إلى إطفاء الأنوار والاختباء تحت الأرض في زمن الحرب.

ظننت لوهلة أنه مجرد وهم، لكن الصوت عاد ليعلُوَ ويصبحَ أكثر وضوحًا، مَرَّ بعقلي عدد من محاولات التفسير السريعة، ولم ألبث أن عدت لتجاهله ومراقبة ظلي.

لكن الصوت علا فجأة علوًّا شديدًا، وبدا كما لو كان يصدر من داخل غرفتي، نهضت مرتعدًا من رقدتي فتحرك ظلي خلفي، حدقت بذهول إلى زوجتي الجالسة على الأريكة مع الجارة، تتحدثان وتضحكان كما لو أن شيئًا لا يحدث.

علا الصوت بشكل لا يحتمل، فقذف في قلبي الرعب، حاولتُ سد أذنَيَّ، وما زالتا تتكلمان بجواري وكأن ثمة جدارًا بين عالمينا.

قفزتُ نحوهما وجذبتُ زوجتي من ذراعيها، هززتها بعنف، وصرخت في وجهها: «ألا تسمعين؟!».

نظرت إليَّ بذعر كما لو كانت تنظر إلى مجنون يهذي دون أن تنبس ببنت شفة.

أفلتُّها من يدي وأدرت عينَيَّ إلى ظلي بتحدٍّ وغضب وصرخت فيه: «ألا تسمع؟!».

بدت في عيون زوجتي والجارة نظرات الدهشة والقلق الممزوج بالإشفاق دون أي محاولة لتفسير الأمر.

بدأت أشك في نفسي، هل الصوت حقيقي؟ خرجت من الحجرة وجريت بسرعة إلى نهاية الرواق، فدخلت إلى أول حجرة صادفتني وأغلقت الباب خلفي.

وقفت أركز صامتًا، هل ابتعد الصوت؟!

لا، لم يبتعد، فتحت باب الحجرة وجريت إلى الشرفة، هل تغير الصوت؟ لا، لم يتغير، هل الصوت في رأسي؟ بدت لي الفكرة مرعبة، صرخت حين توصلت ببساطة إلى تلك النتيجة، أمسكت رأسي وضغطته بكل قوتي والألم والخوف يعتصرانه.

صرختُ بكل قوتي: «كفى».

جرت زوجتي ناحيتي وعانقتني بشدة: «حبيبي»، بدأت الدنيا تدور بي.

اقتادتني زوجتي إلى فراشي، ساعدتني على التمدد وأحكمت حولي الغطاء، ثم همست في أذني مشفقة: «هل هو نفس الوهم مرة أخرى؟!».

نظرت إليها كما لو كنت لا أعرفها، أحسست أني أريد شيئًا آخر، شيئًا ضاع مني منذ سنين، لا أذكر بالضبط ما هو، لكنني متأكد أن ثمة شيئًا ضاع مني منذ سنين.. هببتُ من فراشي، دفعت زوجتي بعيدًا، ورحت أبحث في أركان البيت وفي الخزائن عنه، كنت أهرول بين الحجرات، أفتش مذعورًا وأتلفت بجنون، كنت واثقًا أنني لو رأيته سأعرفه، المهم أن أجده أولًا...

ما أصعب البحث عما تاهت ملامحه! ما أصعب البحث عما تجهله، لكنك تعرف يقينًا أنك تحتاجه!

بحثت كثيرًا حتى أنهكت، لكنني لم أجد شيئًا قط.

تُرى هل مررتُ به ولم أعرفه؟! أم أنه ما زال قابعًا في بقعة منسية ما مررت بها؟!

شعرت بأن قواي كلها انهارت تحت وطأة الضغط، لم أعد قادرًا على الاستمرار، صرخت وأنا أتهاوى على أقرب كرسي. لم أجرؤ على محاولة العودة إلى النوم، قضيت الليل كله وحيدًا أفكر، لم أستطع أن أنظم أفكاري، كان كل شيء مشوشًا مختلطًا، الأمر المؤكد الوحيد.. هو أنني لم أعد أحتمل.

في الصباح.. كانت عيناي منتفختين محاطتين بهالتين رماديتين مريعتين، كنت قد قررت أن أخبر زوجتي الحبيبة أني لم أعد لها، فلم أعد قادرًا على مواجهتها، لقد هزمني ظلي، فصرت رجلًا آخر، رجلًا بلا إرادة.

قلتها في كلمات قصيرة لا تحتمل المراجعة، كانت قسوتي على قدر ألمي ويأسي، لم تنطق زوجتي، كانت الدموع تتدفق من عينيها بلا انقطاع، دون أن تتحرك من مكانها، حزمت أمتعتي بهدوء وتركت المنزل.

مر الوقت، ولم يتغير شيء، عجزت عن الهروب من ملاحقة ظلي، صار كل همي تجنب السير تحت ضوء الشمس أو حتى أعمدة الإنارة، صرت أختار الشوارع المظلمة للمرور، أجلس في حجرتي في الظلام لأتجنب لقياه، كان حلًّا سخيفًا، لكن لم أملك غيره.

وذات صباح هاتفتني حبيبتي دون مقدمات، لم أكن أرغب بالعودة لمواجهة عينيها، لكن صوتها المتهدج عبر الهاتف زلزلني، فقررت أن نلتقِيَ للحديث.

كانت لحظات ثِقَالًا، أصعب لحظات عمري، التقينا يومها عند الشجرة العجوز نفسها، تلك التي ضمنا جذعها معًا في أيامنا الأولى، لم يبقَ بها اليوم من أوراق تظللنا، وما زال جذعها العجوز شامخًا في تحدٍّ، لا يقربه الموت، ولا يهبنا حياة.

أخبرتها أني سأعود للعيش في قريتي الصغيرة بعيدًا عن الجميع، أخبرتها أن بعض الجراح لا تبرأ وأن البعد هو الخيار الوحيد.

بدا لي أنها لا تسمعني، كانت عيناها زائغتين وشفتاها بينهما شق ضيق، يوحي لي طيلة الوقت أنها عازمة على الرد، لكنها لا ترد بشطر كلمة.

كانت تنظر إليَّ كما لو كانت تكتشفني من جديد، وكيف لها أن تفهم أني لم أتغير، كيف لي أن أخبِرَها عن لعنة ظلي؟ هل تصدقني؟ مستحيل أن تفهمني.

كانت ترتدي فستانها الأبيض المحبب إلى نفسي، بدت فيه دومًا عروسًا، لكنها ذلك اليوم بدت أرملة، فالعيون والشفاه تلقي على الأرواح طيفًا يعجز عنه الرداء.

تقول الحكمة القديمة ما حكَّ ظهرك مثل ظفرك، إلا هي، لطالما حكَّت لي ظهري خيرًا من ظفري، ساحرة هي، تنسل أصابعها بخفة إلى رأسي ثم تنزلق عبر مساراتي العصبية حتى نهاياتها فتحتلها، تسيطر على مستقبلاتي العصبية بسهولة، تدرك أكثر مما أدرك أين عليها أن تلمس بالضبط، ومتى تشتد، ومتى تهدأ ومتى تكف.

أظن أني تحدثت طويلًا، ربما كنت محتقنًا بالكلام، كان ظلانا طويلين ملتحمين، بدوا كظل واحد بأربع أذرع وساقين اثنتين، ولأول مرة لا أحاول الهروب من ظلي، لأول مرة أحبه، كنت أطيل الحديث لأستمتع بالتحام ظلينا الكامل، وذوبان وجهي بوجهها، وصدري بصدرها، وبطني ببطنها، وتعانق السيقان، فربما يكون ذلك هو التحامنا الأخير.

حبيبتي لم تعلم ما يجول بخاطري، لكنني كنت أتحدث وأتحدث وأراقب ظلينا في الخفاء، وأقاوم النشوة.

لكن ما فعله ظلي في النهاية لم أفهمه، فحين ودعتني حبيبتي تاركة يدي متجهة إلى الطريق المعاكسة، التفت ظلي لي، وابتسم بخبث كما تعوَّدَ دائمًا، ثم انتزع نفسه مني وتبعها مسرعًا، مددت يدي إليه، حاولت أن أمسك به وأمنعه، لكنه راوغني وذاب في ظلها واختفيَا معًا.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد ظلي لي.

آثام صغيرة

لا يمكنني نسيانُ تلك الليلة، كنت أخيرًا في فراشي بعد يوم طويل شاقٍّ قضيته مع أمي في خدمة الهانم الكبيرة، لطالما ألَحَحْتُ على أمي أن تصطحِبَني للقصر، ذلك البناء الشامخ المهيب الذي يوحي لي بأعمدته الضخمة وتماثيله الأسطورية أنه ليس سوى بوابة لعالم آخر.

السمكة الرخامية العملاقة في مدخل القصر تنفث عمود الماء من فمها بلا توقف، من أين تأتي السمكة بكل ذلك الماء؟ كان سؤالًا لم أجد له إجابة في عقلي الصغير.

الأرائك المذهبة ذات القطيفة الزرقاء، وأخرى موشاة بورود ذهبية، تبدو لي بانتظار ملك ليجلس عليها، السقف، السقف مرتفع للغاية، ربما أربعة أضعاف ارتفاع سقف بيتنا الصغير، تتدلى منه ثريا مذهبة شديدة الضخامة مرصعة بعدد هائل من الكريستالات في ثلاثة مستويات متدرجة يعمي بريقها العيون، اللوحات الزيتية الكلاسيكية ذات الأطر الخشبية العتيقة معلقة على الأعمدة والجدران تتراص بمحاذاة السلم الداخلي المغطاة درجاته بالسجاد الأحمر، منسقة بإتقان بيد فنان، الشمعدانات النحاسية المزخرفة تتراص على الطاولات الجانبية، السجاد الناعم المرتفع، كانت قدماي الصغيرتان تختفيان بين وبرته حين أخطو عليه.

الساعة، كانت الساعة في نهاية البهو، من الخشب الداكن، لها عمودان جانبيان مزخرفان على شكل عدد من الكرات متدرجة الحجم، يفصل بينها حلقات نحاسية رفيعة، بينما تتدلى من الساعة ثلاث أسطوانات ذهبية تتصل ببندول على شكل قرص ذهبي من خلال عمود أسود رفيع.

كان مشهد الساعة وهي تعلن تلاقي العقربين أسطوريًّا، كنت أجري بأقصى سرعة كلما بدأت بالدق لأستمتع بالإعلان المهيب لمرور الزمن، ثم يصمت الدق، وتستمر حركة البندول يمنة ويسرة وتكات الساعة، كنت أُومِنُ في ذلك الوقت أن الساعة تسكنها روحٌ ما، هي المنوطة بتنظيم الوقت وإصدار تحذير كل ستين دقيقة أن العمر يمر.

وكلما أقيم حفل في القصر قضت أمي اليوم كله في الإعداد له مع آخرين.

كثيرًا ما ذهبت معها لأساعِدَها، وحين تصدح الموسيقى ويمتلئ البهو بالضيوف أختبئ خلف إحدى شجيرات الحديقة، لأراقب من نافذةِ البهوِ الكبيرة ما يحدثُ في العالم الآخر.

كنت أرى نساءً أجمل كثيرًا من أمي، ليس للشمس أثرٌ على وجوهِهن البيضاء، يضعن أحمر الشفاه الصارخ، ويرسمن عيونهن بالكحل الأسود الساحر، يرتدين ملابسَ أكثرَ أناقةً من ثوبِ أمِّي الخالي من الزينة، تنسدل شعورهن الناعمة، ويتراقصن بخفة على أنغامِ الموسيقي، تتردُ أصداءُ ضحكاتِهن لتملأَ المكان.

«لماذا لا تضحكُ أمي؟!» كان ذلك واحدًا من أسئلتي الصغيرة الذي لم أحصل له قط على إجابة.

ذلك اليوم، كنت أساعد أمي في تنظيف الأطباق التي امتلأت بها الأحواض عن آخرها بعد مأدبة الليلة الماضية. تناوِلُني أمي الطبق الفخاري الأبيض الموشى بالذهب بعد أن تجفِّفَه لأضعَه على المنضدة العالية، ورغم عمري الذي لم يتجاوز الست سنوات آنذاك فإنني كنت بالنضج الكافي لاستحقاق ثقة أمي، تناولني الأطباق الثمينة فأقبض عليها بحرص، أمسكها بكلتا يدَيَّ وأضم عضدي إلى جانب صدري وأكتم أنفاسي، أسير ببطء كلاعب سيرك ماهر يخطو بأناة على حبل، أضع الطبق فتسترخي كتفاي المشدودتان وأتنفس عطر انتصاري الصغير، فعلت ذلك بصبر عشرات المرات دون ملل، حتى... حدثت الكارثة.

انزلق الطبق الكبير من بين أصابعي المجهدة، رأيته بعينَيَّ وهو يطيح في الهواء ويخرج لسانه لي، لقد نجح في السقوط رغم كل ما فعلت، قذفت بجسدي بسرعة خلفه لأمسك به قبل أن يصِلَ إلى الرخام، فاصطدمت كتفي بطرف الطاولة حيث عمود الأطباق، اهتز العمود بعنف وانزلقت الأطباق جميعًا إلى سطح المائدة لتتكسر وتتناثر أجزاؤها في كل مكان كَنَيَازِكَ صغيرة، لا أظن أن انفجارًا كونيًّا كان بإمكانه أن يرعِبَني أكثر من ذلك المشهد.

لا يمكنني نسيانُ تلك اللحظة، وجه أمي الذي انقلب إلى الحمرة القانية، نظرة الذعر بعينيها، ودمعة الذل التي ترقرقت فيها، انكفأتْ أمي على الأرض كجندي مهزوم في آخر المعارك، ممسكةً ببعض الأجزاء المكسورة، تنظر إليها وكأنها تستجديها أن تلملِمَ نفسها وتلتحمَ من جديد، لا شيء يعود كما كان يا أمي.

تسمرتُ في مكاني عاجزة عن النطق، أتمنى أن تنطبق السماء على رأسي، انهالت أمي بكفها على جسدي الضعيف تضربه، وأنا لا أقاوم، لا أصرخ، كنت مستسلمة تمامًا لها، كنت أفهم جيدًا معنى ما حدث وفداحة الجرم، كان شعوري بالذنب موجِعًا حَدَّ أن تلذَّذْتُ بقسوة أمي، ليتها

تضرب أكثر لتُطَهِّرَني تمامًا من إثمي، ذلك الذي فعلت المستحيل كي لا أَقَعَ فيه. ليتها تجهز عليَّ لينتهِيَ الأمر برمته ولا أعود مضطرَّة إلى تحمل نيران عينيها اللائمتين.

لا أذكر بالضبط كيف ومتى توقفت أمي عن الضرب، ولا كيف جمعتُ مع أمي آثارَ الحادث الرهيب، ولا أذكر تحديدًا كيف عدت إلى البيت في تلك الليلة السوداء.

ربما حملتني أمي كعادتها إذا جَنَّ الليل في طريق العودة، وربما جرجرتني كما نجرجر خيباتنا ساخطين على كل العالم، لكن الأغلب أنني تبعتها وحدي دون أن تمسك يدي ودون أن أمسك أنا ذيل ثوبها، فالمذنبون لا يتدللون، بل يسيرون مستندين إلى الهواء، يبتلعون الأنين ويلوكون الصمت.

حين يعوزُك البكاء، تستجدي الدمع أن يسيل ليروِيَ شقوق قلبك الذي أعطشه الحزن، تستجدي الدمع فيأبى، فتبكي الهواء، هكذا كان حالي تلك الليلة.

كانت الأمطار تهطل دون توقف، والرعد يقطع صمتنا كل حين، كان الشارع المفضي إلى القصر مرصوفًا بالأحجار السداسية السوداء، تصطفُّ شجيرات الورد القصيرة على جانبيه، وتتناثر عليه أوراق الخريف الجافة، تغطيه طبقة بلورية رقيقة من المياه الرائقة -كعادته كلما نزل المطر- تنزلق بمجرد سقوطها على نهر الطريق بسرعة، لتبتلعها المجاري الضيقة عند حافة الرصيف.

لم أرفع عينَيَّ عن الأرض بطول الطريق.. حتى انزلقت على الأرض الطينية في حارتنا، هنا لا مصرف للمياه، تتراكم الأمطار في البقع المنخفضة من الأرض مختلطة بالتراب والنفايات، فتصبح محاولة المرور في الشارع مأساة حقيقية.

في حارتنا يتبلل العرايا المشردون، تتلاصق أجسادهم المرتعدة، لا غطاء، لا عاصم من الريح، لا طعام، يتوسلون إلى السماء أن تغلق بابها المفتوح، ذاك الذي يتغنى به الشعراء.

فللمطر -ككل ما في حياتنا- وجهان.

لا أذكر كيف بدلت ملابسي المتسخة، ولا كيف دخلت حجرتي، كيف وصلت إلى نقطة أن أتمدد على فراشي بسلام وأسحب الغطاء على جسدي المتعب محاولة الهروب من كل ما حدث.

هل جرب أحدهم قبلًا أن يموت؟!

هكذا كنتُ ليلتها، في حالة لا أظنها تختلف عن الموت كثيرًا

جسد متصلب، ووجه يحدق إلى اللاشيء، روح هائمة في العدم لا تعِي شيئًا مما حولها، ربما لا يعنيني كثيرًا أن أهش تلك الذبابة الواقفة على أنفي تحدق إليَّ بعيونها الزجاجية الكبيرة وتبتسم في سخرية، وكأنها قرأت ما في ضميري وعلمت يقينًا أن لا قدرة لي ولا رغبة بي لِهَشِّهَا.

ولماذا أحرك إبهامي؟! ذلك الجزء الميت من ميت على قيد الحياة.

حركَت الذبابة أرجلها في فتور وكسل وطنت قليلًا ثم طارت ووقفت على خدي، هل أتحرك الآن؟! لا أظن.

كنت أتحدى نفسي لأثبِتَ لها أن لا شيء يؤلمني ولا شيء يعنيني، أتحداها لأثبِتَ لها أنني أعرف جيدًا بمَا يشعر الموتى.

هل كانت تلك الأطباق غالية جدًّا؟ أم أن أمانَ مَن هم مثلي هو الرخيص جدًّا؟ انطفأ الضوء القادم من شباكي فغرقت حجرتي في الظلام الدامس، تذكرت الثريا الكبيرة في بهو القصر والضوء المنبعث من كل الأركان، البيت الكبير لا يعرف الظلام.

غطيت رأسي بالملاءة هربًا من عفاريت الليل كما علمتني أمي، بعد هنيهة دوى في الحجرة صوتٌ مرعبٌ، كان مزيجًا من صرصرة الريح وزمجرة الأسد، أخرجت رأسي من تحت الملاءة أحدق إلى الظلام وقلبي الصغير يتقافز في صدري. ظهرت لي عينان تلتمعان محاطتان بهالة بيضاء، أصابتني تهتهة الرعب، اقتربت العينان مني وسمعت ذلك الصوت المخيف: «لك عندي ثلاث أمنيات، سأحققها لك فورًا وإن كانت مستحيلة».

وسعت عينَيَّ عن آخرهما وبحلقت بالعينين اللامعتين، أحقًّا ذاك؟ أم أنها هلاوس التعب؟

قلت مترددة بصوت خفيض مرتعش: «هل أنت جنِّيُّ المصباح الذي حكت لي عنه أمي؟».

قال: «نعم أنا، هيا اطلبي، لا تضيعي فرصة العمر».

اعتدلتُ في الفراش غير مصدقة، أحقًّا يمكنني الآن تحقيقُ أحلامي؟ حاولت أن أستجمع تركيزي وشجاعتي بينما تحتل وجهي ابتسامة كبيرة ذاهلة، مررت إصبعي الصغيرة على وجهي أفكر طاردةً كل شكوكي ومخاوفي، ثم قلت بتردد:

- حسنًا، حلمي أن أذهب إلى المدرسة، أشتري كراسة وقلمًا، أردد مع الأطفال حروفًا وكلمات، أرتدي مريولا وأضع شريطة بيضاء في شعري، وأقول لكل أطفال الحي إني أصبحت بالصف الأول.

أما أمنيتي الثانية، أن تُشفى أصابع أمي المتيبسة لكي تقدر على الخدمة بلا كثير من الألم، وتصلح لي شعري دون آه، تمسك بيدي فتحتويها تمامًا، أستمتع بتطابق كفينا الكامل وتلامس كل نقاط السطح، تدفئني حين أشكو لها البرد دون أن تهددها آلام ثنيها.

ترددت لحظة ثم قلت: «أما أمنيتي الثالثة فهي أن تعيد الأطباق المكسورة إلى حالها وكأن شيئًا لم يحدث».

مرت لحظة صمت طويلة، أطول من سنوات عمري الست، وأثقل من ذنبي، حبست فيها أنفاسي منتظرة تحقيق الأحلام وميلادًا جديدًا.

بدت لي في العينين اللامعتين نظرة غريبة، ثم أُضِيءَ المصباح، فوجدت أخي ذا السنوات الثماني يقهقه ضاحكًا.

حدقت إلى عينيه الخبيثتين أحاول تجاوز الصدمة، أكانت مزحة؟

رمى أخي الملاءة البيضاء على وجهي وانطلق خارجًا من الحجرة يواصل الضحك بصوت عالٍ: «أنا الجِنِّييييي، أنا الجِنِّييييي».

أزحتُ الملاءة عن وجهي ببطء، كانت ثقيلة للغاية، ربما حُمِّلت بأحلامي المهيضة، تمددت في الفراش وسحبت الغطاء على كتفي، انزلقتُ بهدوء شديد من قمة جبل الحلم حتى لامستُ السفح، مسحتُ دمعة خائنة، أبعدت عن رأسي صورة البقايا المتناثرة للأطباق ودموع أمي وقسوة يديها، أغمضتُ عينَيَّ بقوة محاولة النوم، عَلَتْ في رأسي دقات الساعة الكبيرة حتى قطعها البرق، كاد الخوف يقتلني، نزلت من فراشي مترددة وخرجت من حجرتي، وقفت في الردهة بلا حراك ترتعد أطرافي من البرد.. إثمي جاثم على صدري.. أحن إلى حضن أمي وأخشى اللوم في عينيها، نادتني أمي على غير انتظار فهرعت إليها، تلقفتني بين ذراعيها دون كلام، ضمتني بشدة.. فطهُرت من إثمي.

الغميضة

هكذا ولدتُ، بعينين لم تعرفا غير الظلام، لكن أمي كانت تصف لي الأشياء، أخبرتني أن للبحر والسماء لونًا أزرقَ، لم يكن بإمكاني يومًا أن أتخيل شكل الزرقة، لكن انطبع في وجداني أن الزرقة هي الامتداد، اللانهائية، العلو، الثورة والرحيل.

أما الأسود، فقد أخبرتني أنه الليل، واليأس، والخوف والجهل. وفي نفس الوقت هو ملك الأناقة لما فيه من غموض وسحر، قالت أمي إن الأبيض هو السكون والوضوح والبساطة والأمان.

كنت أتخيل أن الأبيض هو الأسود بالمقلوب، لا أعرف كيف تُقلب الألوان لكن هكذا فكرت، كان يشغلني دومًا سرُّ الألوان. كنت أحلم أن أراقب الثلوج المتساقطة وهي تدور بخفة حتى تكسِيَ أغصان الشجر العارية فتصير عروسًا ليلة عيد. كنت أحلم أن أراقب قوس قزح وقت الغروب، أجمع الأزهار وأصنع منها باقة كبيرة لأمي، كنت أتمنى لو أني أستغني عن الأيدي التي لا بد تقودني.. فأتحرر، ربما أمتطي صهوة جواد فتلتحم روحانا، أربت على عنقه بحنان فيفهمني، يطير بي فيصير جسدانا كيانًا واحدًا، ترقص روحانا معًا على إيقاع أقدامه المتناغم، أن أبصر يعني حريتي أن أختار.

«ليلى.. ليلى».

صرخت أختي باسمي فسقطتُ من صهوة فرسي عائدة إلى كرسيِّي الخشبي.

«هيا نلعب»، راحت كفها الدافئة تلامس يديَّ ووجهي، ذلك الذي لا أعرف ملامحه، تستجديني مشاركتهم بلا ملل، بينما تتعالى ضحكات الصغار، ومع إصراري على الرفض تركني إخوتي ليلعبوا «الغُمِّيضة»، اللعبة الوحيدة التي بإمكاني مشاركتهم إياها، ولم أعد أفعلها قط.

لماذا لا أحد منهم يفهم أن ثمة فارقًا بين شعورك وأنت مغمض العين بكامل إرادتك، تتحسس طريقك، تتعثر وتضحكك عثراتك، وأن يكون إغماضك قسريًّا بلا قدرة على الرجوع إلى النور؟

ولماذا يضحكني الظلام إذا كانت حياتي كلها غميضة كبيرة؟

الصغار لا يهدؤون، يتردد صوت ارتطام خطواتهم الجريئة بالأرض الصلبة، تحسست ساقَيَّ، تشككت في قدرتهما على الجري من شدة ما يقيدهما الخوف.

دوى صوت الرعد، أعقبه صوت المطر، سحبت نفسًا عميقًا، مدمنة أنا لموسيقى المطر، وحدها تأخذني من سجني الضيق لعالم فسيح.

تحسستُ طريقي إلى الشرفة، حين تكون عيناك عاجزتين عن التواصل مع العالم، تتفتح أذناك على وقع خطى الحياة.

للمطر أسرار، كَسُلَّمٍ موسيقيٍّ يتتابع سقوط حبات المطر، تسقط واحدة على الأرض الصلبة، إنها دو، وواحدة على ورقة شجر جافة، ري، وواحدة على غصن نَدِيٍّ، مي، يبدو الأمر كله كَلَمْسٍ لأصابع بيانو خافت الصوت؛ لا يمكنني تحديدُ من أين يأتيني الشجن، لكنه يلُفني، ويُغيبني.

لي مع المطر حكايات كثيرة، قطرات المطر الساقطة على سطح النهر... إنه الشوق في لحظة ارتواء... وتلك الساقطة على الطريق الصلبة، إنه يأس المنتحرين.

تبدو لي قراراتها الجماعية بالانتحار خالية تمامًا من التردد، غادرت سماءها الواسعة وارتمت على الأرض بكل ذلك العنف والجرأة، أم أنها أملت أن تجد في صلابة الأرض رحمة افتقدتها بين عبث الرياح؟

معزوفة المطر تخبرني بكل شيء، تخبرني أن ثمة حياةً وإن مات في قلبي شيء، لا نهاية سعيدة أو شقية، النهاية ليست سوى انتهاء تخلفه بداية ما، دائمًا ثمة بداية.

صوت المطر لا يشبهه شيء، شيفرة ربما تحتمل أكثر من حل، تُرى كيف يقرؤها المبصرون؟

الرعد يدوي من جديد، مصراعا النافذة المفتوحة قد جن جنونهما، صراخ الجارة لا يبدو أنه سيهدأ الليلة، أصدقاء الطفولة، أصواتهم البعيدة تموج في عمق الذاكرة، الغميضة، حين كانوا يتخاطفون رباط العينين، بينما أنا لا أحتاج إليه.

السيدة نور، حذاؤها ذو الكعب المدبب الذي يدق بعنف أسفلت الطريق بمجرد اقترابها من الدار، أول من علمتني طريقة برايل، كآلة كانت تتحدث معي، تمسك يدي، تضغطها بقسوة، بينما أخشى أن أُظْهِرَ ألمي أو أطالبها بالرفق، كنت أستسلم لها تمامًا وكل ما أخشاه أن أُخطِئ، فالظلام يجعلك تستشعر الإهانة مضاعفة.

مرت بي سنوني الأولى دون أن أفهم قط أن العيون تستطيع أن تبصر أبعد كثيرًا مما تفعل العصا، وحيدة في حجرة صغيرة، مر العمر بي، حتى عرفَتْ أناملي طريقها بين تلك الحروف

البارزة، فقرأتُ عن قوس قزح لحظة غروب الشمس، وعن العصافير الملونة، وجنون السحب قبل المطر، وعن شجر الحناء في الربيع، وعن درجات الأزرق حين تتكسر موجة، وعن درجات الأحمر في ثورة بركان، وألوان أخرى كثيرة، السيدة نور فتحت لي نافذة على العالم حين ضغطت أصابعي بقسوة، لا بأس، دومًا ثمة ثمنٌ ندفعه.

أيام العيد، حين كانت أمي تصطحبني لتجمعات الجيران والأصدقاء، لِتَزُجَّ بي في الصراع الذي كُتب عليَّ منذ بدأ تاريخي، أحاول في كل لحظة أن أثبت للآخرين أنني لست زائدة على الحياة، أن إشفاقهم لا يسعدني، وأن همهمات العطف تنغرز في ضلوعي.

كان منتهى أحلامي أن تكف عيونهم الوقحة عن محاصرتي حين يمصمصون الشفاه ويربتون على كتفي.

معتقدون هم أنهم الأكمل؟ فماذا عن نور القلوب؟ ما أشد ظلمك وظلامك أيها العالم!

على كل حال لا شيء يبقى، ولا أحد يبقى، كالنجوم المحترقة يهوي كل شيء في سماء حياتنا وتمتد بنا الطريق، نسير بلا توقف، فالعقارب لا تعرف الرحمة، تدور بحدها عمياء متجهمة في ساقية الزمن لتقطع أعناق الأمنيات، كثير من المشاعر، قليل من المساحة.

كما لو كنت في حجرة ارتفاعها أقل من طولك وعرضها يضغط أضلعك، لا نور، لا هواء، لم تكن بها لساعة، بل أنت حبيس بها من قبل الميلاد.

لم تكن طموحاتك يومًا سيارة فخمة أو قصرًا فوق هضبة عالية محاطًا بحدائق التوليب، بل كان حلمك الوحيد دومًا أن ترى النور، تجري ككل الأطفال بين الحقول، تملأ صدرك بالهواء، تمد ذراعك بِحُرِّيَّة، تحركها بكل اتجاه دون أن تخشى التسبب بكارثة، تضحك بصوت عالٍ يتردد صداه في ساحة البيت الكبيرة، لا خجل من عينيك، لا قلق مع كل خطوة.

كان حلمك أن تقفز في الهواء دون أن يرتطم رأسك بسقف أحلامك الصلد فتغرق في ظلامك الأبدي، كان حلمك أن تجد حُبًّا يشاركك خطواتك الحرة الجريئة، يمسك بيديك، لا لأنك أعمى بل فقط لأنه يحتاج إليك.

كان حلمك صغيرًا، لكن العالم كان منه أصغر.

توقف المطر عن الهطول، فانزاحت غيمات الذكرى.

تحسست طريقي إلى حجرتي، أقدم خطوة ثم أؤخرها، أتحسس الجدار، أعد المسافة بالشبر، ألمس الزاوية الخشبية الناعمة، أنعطف يمينًا في الردهة، تزحف أصابع قدمَيَّ على الأرض تتحسس التفاصيل، ثلاث خطوات على البلاط البارد ثم يبدأ شريط السجاد، خطوة خطوة، غير مستعدة أنا لإيقاع أي شيء وكسره ليجري الجميع يجمعون الأجزاء المكسورة تسبقهم همهمات جارحة، لا بأس أيتها الحياة، أنا لك.

وعلى باب حجرتي تسللت إلى أذني موسيقى سحرية منبعثة من التلفاز.

آهٍ وآه من عجز الكلمات! وكيف تجاري الحروف العرجاء ما تطلقه الموسيقى في وجداني من قذائف نار.

جلست على طرف الفراش صامتة أستمع، تحاصرني الموسيقى كمحقق سادي يحاول انتزاع الاعترافات بطريق التعذيب، رغبة شديدة في البكاء، أنا بالون انتفخ حد الانفجار لكنه حرم ذلك السكين المنقذ.

تعتصر الموسيقى عنقي فأرتكن برأسي إلى الحائط، تحلق بي في أعماق اللانهائية بعيدًا عن موضع قدمي بألف عام ضوئي، أتلمس على كتفَيَّ جناحين، مزيجًا من الحرية المطلقة والضغط غير المحتمل.

يفتح اللحن أقفالًا ضخمة على بوابات مغلقة منذ بدأ العمر، أسمع صرير الأبواب تهب من ورائها نسمات الحيرة، عندما يُسمح لروحك باعتناق الحرية وتفتح لها الأبواب، لكنك عاجزٌ، بلا عينين، تسللت من عيني دمعة سجينة.

يخبرني اللحن أن ما بداخلي أكثر كثيرًا مما بُحت به طوال العمر وأكثر كثيرًا مما أعرف عن نفسي، يخبرني اللحن أن ثمة عوالمَ داخلي لم تُكتشف بعد، عوالم غارقة في الظلام، بينها وبين اللغة سدود عالية، وحدها الموسيقى قادرة على تخطيها، وحدها الموسيقى تخترق حجب الظلام، تتحسس معالم دنيا خفية، وحدها الموسيقى تشطرني نصفين، نصفًا صامتًا تائهًا، ونصفًا يهزه بعنف عله يفيق ويبوح، ربما يبوح بالدموع، بالصراخ، بالغناء، لكن المؤكد أن صمته سيستمر في عالم الكلمات الأخرس.

هززت رأسي بأسًى، مسحت عينَيَّ بخفة، سألت أختي: «صِفِي لي ما يحدث على الشاشة».

تنهدت أختي وربتت على كتفي وقالت: «بين أمواج بحيرة هادئة ثمة بجعتان تمارسان طقوس الرقص، تهتز البجعة للأمام والخلف برشاقة لتلصِقَ صدرها بصدر رفيقها وتبعده

بسرعة، تنثني الرقاب في نصفَيْ دائرة لتتعانق عند الخد...».

قلت في حيرة: «متى تعلم البجع كيف يرسم القلوب؟ حسنًا أكملي».

- ترفع البجعة رقبتها في شموخ إلى أعلى فيفعل ذلك الرفيق، تتقدم فيتبعها، تجاوره فينظر إليها، لقد اتفقا بالتأكيد على حفظ حركات الرقصة.

تضحك أختي.

- حسنًا أكملي.

- ينزلقان بخفة بلا توقف على سطح البحيرة في زجزاج طويل، بينما يقدمان بحركات العنق عرضًا عالميًّا في العشق.

دمعت عيناي، أحُرِمتُ كل ذلك؟ لماذا ولدتُ عمياء؟

شعرت برغبة جامحة في احتضان أمي، نهضت فسعيت إليها لا ينبئ وجهي عما بداخلي من نار، وطأت قدماي حجرة أمي، هنا الأمان، تحسست خطواتي حتى صعدت إلى فراشها قابضة على جمرة، وضعتُ رأسي على فخذها، وسادتي المفضلة، واحتضنت كفها، اعتدلتْ في نومها لتحتويني تمامًا بين ذراعيها، سألتُها بحروف مقطعة خرجت بصعوبة: «أمي... كيف تبدو المرآة؟!».

سكتتْ هنيهة ثم قالت بصوتٍ متهدجٍ: «سطحٌ لامعٌ بارد يرى فيه الإنسان فقط ما يريد أن يراه ويعمى عن كثير».

قطبتُ جبيني مندهشةً وسألتُها: «إذًا لا يرى نفسه؟».

أجابتني ببساطة: «العيون لا ترى أبدًا حقيقة الإنسان، إنما يراها القلب، وحده القلب، وإن خُيرت أن يكون لي عينان أو قلبٌ كقلبك، لاخترت قلبك البصير أيتها الجميلة».

أخذتني كلماتُها بعيدًا فقفزتُ من فوق أسوار سجني لأسبح في السماء بلا قيود، ونسيتُ أني لا أرى.

مضت السنون، ورحلت أمي مع كل الذين رحلوا إلى العالم الآخر وتركتني وحدي، لكنها تركت لي ميراثًا قدسيًّا، كلمات من نور، بعثت الحياةَ في سوسنات الروحِ الذابلة فتفتحتْ، ونظرتْ، واندهشت.

رأت حراكًا فيما ظنته يومًا جامدًا، وسمعت ألحانًا ملائكية تنبعث مما ظنته عبثًا، أغلقت عنه الأذن عمرًا!

رأت النورَ يملأُ السماءَ عند منتهى نفقِ الظلمةِ الذي تسمَّرت عند بدايتِه منذ الأزل! فصرتُ أبتسم ابتسامة مَن يعلم قيمة الأشياء.

وكلما أخذني الحنين إلى لمسة أمي فتحتُ كتابي وفتشت بلهفة بين حروفه البارزة، حتى تعانق أصابعي حروف كلمة «يديها».

موعد

تررررن تررررن تررررن تررررن

اللعنة، السابعة صباحًا وما زلت بالفراش.

أزحت الغطاء وقفزت بنشاط، دسست هاتفي النقال في جيب منامتي، غسلت وجهي وأسناني بينما أتصفح بريدي الإلكتروني، جففت وجهي وأسرعت إلى ماكينة القهوة، ضبطتها على وضع التشغيل، بدلت ملابسي بينما أستمع إلى الرسائل الصوتية المسجلة على هاتفي:

- صباح الخير أستاذة روان، عندنا عطل بالماكينة الجديدة ومهندس الصيانة في إجازة.

- حبيبتي، صباحك فل، نفد دواء الضغط، أنتظرك في المساء، قبل موعد الدواء.

- صباح الخير، جهازك النقال جاهز للاستلام يا أستاذة.

- أستاذة روان آسفون للإزعاج، اجتماع طارئ الساعة السادسة مساءً.

- أين أنت يا روان، لديَّ مشكلة ومحتاجة إليك.

أخرجت المفكرة، سجلت ملاحظاتي، رشفت رشفة طويلة من كوب القهوة في أثناء تسجيل رسائل صوتية.

عقصت شعري الذي لم أعد أعيره أي اهتمام إلى الوراء، لملمت بسرعة أشيائي المتناثرة وملف أوراقي، ودسستها جميعًا في حقيبة الظهر، اختطفت نظارتي الطبية وحقيبة يدي، صفقت باب الشقة وهرولت على السلم كمجنونة، فعليَّ اللحاق بالموعد.

كدت أرتطم بعامل المكيف لحظة خروجي من بوابة العمارة، اعتذرت في ارتباك وعاودت الصعود معه إلى الأعلى، كان الجو حارًّا للغاية، وهذا ما اضطرني إلى الاتصال بالصيانة لإصلاح مكيف حجرة المكتب، بصعوبة نجحت في إقناعهم أن هذا هو الموعد الوحيد الذي يناسبني، لم أكن بعد قد عرفت أن لديَّ موعدًا آخرَ مهمًّا في صبيحة ذلك اليوم، أريته الجهاز المعطل وأخبرته أني مضطرة إلى النزول وعليه التصرف وحده، أغلقت باب حجرة النوم بالمفتاح، تركته يعمل، وعاودت الهرولة على السلم.

فتحت بابها جارتي القاطنة بالطابق الرابع، كم هي سخيفة ثرثارة، تبتسم دائمًا ابتسامة كريهة مفتعلة.

- أستاذة روان أغثيني.

«لا وقت لدي للغوث» ترددت في عقلي بينما اضطررت إلى رد آخر.

- ما بك عزيزتي؟ هل ثمة مشكلة؟

قلت لنفسي وأنا أقترب منها وضربات قلبي تتسارع: «فكيف يمكنك أن تقنِعَ مستغيثًا أنه وقت غير مناسب للغوث؟».

بدأتْ بالحديث عن البواب الذي يتأخر في الاستجابة لطلباتها ويسافر إلى بلدته دون إذن، ابتسمتُ ابتسامة لا تقل عن ابتسامتها قبحًا، وأنا أهز رأسي في غيظ مقاطعة إياها: «ما المشكلة الآن عزيزتي؟ هل يوجد أمر عاجل؟».

- لا أجد من يشتري طلباتي من السوق وأنت تعرفين أنني أحب تناول الخبز الطازج، فالاحتفاظ بالمعجنات في المبرد يفقدها حلاوتها كما تعلمين، وأنا بالعادة...

بترتُ جملتها: «حسنًا، أعدك بمناقشة ذلك الأمر لاحقًا، فلديَّ الآن موعد مهم، مهم جدًّا».

أغلقتُ بصعوبة نافذة الحديث وأنا أستدير باتجاه السلم، أمسكتْ بذراعي بقوة كما لو كانت تتآمر على تأخيري عن موعدي: «لكن أحتاج إلى الحديث معك دقائق إضافية».

حاولتُ أن أكتم أبخرة الدخان المتصاعدة من رأسي وأبتسم مهما كانت ابتسامتي كريهة، لكنني حقًّا عجزت عنها، فَاحْتَلَّ وجهي -رغم إرادتي- تعبير عجيب، هو مزيج من الغيظ والقهر ومحاولات الابتسام الفاشلة.

- صدقيني لديَّ موعد مهم للغاية، أعدك بالزيارة لاحقًا.

يبدو أنها أخيرًا شعرت بعجلتي، وبأنني غير متعاطفة مع مشكلاتها الدامية، فمصمصت شفتيها كما كانت تفعل ماري منيب في الأفلام المصرية بالثلاثينيات، ثم ودعتني وفي عينيها سخط لا تخطئه العين.

تنفستُ الصعداء وتابعت هرولتي على السلم، وأنا أدعو الله ألا يحدث شيء آخر يعطلني عن موعدي الذي صرت أعده مشؤومًا.

خرجت إلى الشارع أخيرًا، للمرة الأولى تبدو لي بوابة العمارة كبوابة سجن تحررت منه للتو، كان الجو قائظًا للغاية، وأصوات أبواق السيارات وزحام المارة كفيلة بإصابتك بالتوتر الشديد.

لكن لا وقت لديَّ، عليَّ اللحاق بالموعد، قفزت خلف مقود سيارتي وأدرت المفتاح فسمعت أنكر الأصوات التي يمكن أن يسمَعَها المرء في مثل تلك اللحظة، إنه محرك السيارة يحتضر، دققت مقود السيارة في غضب، انتشلت حاجياتي من الكرسي المجاور، ووقفت أشير إلى سيارة أجرة: «مطار القاهرة؟».

نظر السائق إليَّ بسخرية وانطلق دون رد.

ومن يقلك من أول العالم لآخره في ذلك الموعد سوى هارب من مستشفى المجانين؟

وقفت أضرب سقف سيارتي بِغَيْظٍ وأفكر فيما يمكن أن يحدث إن فاتني الموعد.

لم أتوقف عن القفز بين سيارات الأجرة والصياح بأعلى صوتي: «مطار القاهرة؟».

فات أكثر من عشر دقائق ولا يلوح أمل على الطريق.

بدأت أفقد أعصابي، قررت القفز في حافلة من حافلات النقل العام، الموعد مهم، الأمر يستحق التحمل.

قفزت إلى الرصيف المقابل بين السيارات كلاعب سيرك، وعرجت إلى الشارع الرئيسي بأقصى ما استطاعته ساقاي المرهقتان، موقف الحافلة، كثير من البشر بالانتظار، تُرى هل يمكنني فعلُها؟ لا مفر من التزاحم والتصاق الأجساد، لا يهم، المهم هو الموعد.

اقتربت الحافلة من المحطة فتسابق الجمع إليها، تزاحمت معهم وأنا أشعر أنني قد تحولت فجأة إلى بهلوان.

صعدت مع الكتلة البشرية إلى الأعلى بأعجوبة، لم يكن طموحي أن أجد مقعدًا خاليًا، فأنا أعرف تلك الحافلات جيدًا، ولكن كان منتهى أملي أن أَصِلَ إلى وجهتي دون أن تُسرق حقيبتي أو أتعرض للتحرش.

وقفت في الزحام ممسكة بعمود الحافلة، أتلفت طوال الوقت لأراقِبَ مَن يقف في محيطي تحديدًا، كلما ضغط السائق الكابح اندفع جسدي بكل ثقله ليرتطم بسيدة ريفية متينة البنية، تنظر إليَّ السيدة باشمئزاز فأعتذر لعدم قدرتي على التحكم، اعتذرت لها ثلاث مرات، وفي الثالثة بدا لي أنها ستحطم رأسي في العمود، لماذا لم نتدرب حين كنا أطفالًا في المدرسة على مهارات

حفظ التوازن في أثناء الوقوف داخل صناديق متحركة؟ هذا أكثر فائدة لمستقبلنا من تمارين الجري في المكان.

كنت أنظر إلى الساعة مرة كل دقيقة، أراقب السيارات من الشباك البعيد وأتوسل إليها في داخلي أن تمرر الحافلة أولًا.

«محطة النزهة»

أخيرًا، اخترقت بصعوبة الأجساد المتلاصقة للوصول إلى باب الحافلة، شكرت السائق فنظر إليَّ باستغراب، يبدو أنها المرة الأولى التي يشكره فيها أحد، لا بأس.

نزلت في المحطة، عليَّ أن أبحَثَ عن سيارة تقلُّني فورًا إلى داخل المطار.

«تاكسي ..»

أخيرًا... بوابات المطار. هدأت أنفاسي حين وجدت أنه ما زال لديَّ ما يكفي من الوقت قبل موعد الطائرة، عبرت من بوابة السفر وانتهى بي اللهاث على مائدة صغيرة أرشف وحدي فنجانًا كبيرًا من القهوة، أغمضْتُ عينَيَّ ورحت أتنفس بهدوء وانتظام كما تعلمت في تمارين اليوجا، محاولة الانتقال من حالة اللهاث المستمر والتوتر إلى الاسترخاء والتركيز، فَتَحْتُ عينَيَّ وتشاغلت بالنظر بين الوجوه حولي، الكل بانتظار الرحيل.

هنا في مكان ما.. تهيم روح متشبثة بالسكن في كوة في جدار، الجدار في قلب، والقلب مضطر إلى رحيل، ولا بديل... روح متيقنة أن الفراق موت، ولا بديل.

هنا في مكان ما تهيم روح أثلجها الخذلان في لقاء بارد بعد غياب، أو في انتظار لقاء لم يكن إلا سرابًا.

هنا غادَرَ أحدهم فتيًّا في عزوته ثم عادت جثته وحيدة بلا رفيق.

هنا تبدأ حكاية وتنتهي حكاية وتلتقي بداية ونهاية في دائرة العمر.

عودة المنتصر وعودة المهزوم، ربما تختلف المشاعر في اللقاءين وتتردد ضغطة اليد أو تشتد، ولا ساتر لتنهيدة القلوب، لكن الجميع يعبر في النهاية من بوابات الوصول.

بوابات المطار، أسهم كثيرة متعاكسة وكلٌّ يعرف وجهته جيدًا في الزحام، لا تيه في ساحات السفر، إنما يأتي التيه حين يُظن الوصول.

الرشفة الأخيرة من القهوة، ثم انتظار قصير نسبيًّا في سلسلة انتظارات العمر، ثم حلقت الطائرة بي.

ابتعدت عن الأرض بسرعة، راح حجمي يتضاءل بنفس السرعة، حتى بات الاعتقاد في كوني شيئًا أمرًا صعبًا.

وددت لو أن الطائرة تأخذني لحافة الكون ثم تدليني دون ضجيج في ثقب أسود، ربما ينتهي حينئذ لهاثي المحموم على تلك الأرض.

فكرة الابتعاد بشكل عام تشعرني بالراحة، وإن كنت لا أستطيع تحديد النقطة التي عليَّ أن أبتعد عنها، مفهوم البعد يبدو هلاميًّا حين لا تعرف مكانك الصحيح، لكن المؤكد أن ثمة شيئًا ما عليك الهروب منه طوال الوقت.

«على السادة الركاب ربط الأحزمة والتزام المقاعد».

جلس بجانبي، اعتدل ومد يده بطرف حزام مقعدي الضائع مني، شكرته بابتسامة، فرد ابتسامتي بابتسامة طفولية خجلى وفي عينيه نظرة ودودة هادئة حبلى بالكلمات.

هبت عليَّ موجة دافئة أذابت ثلوج أفكاري، أنستني موعدي والجارة والحافلة وزحام الحياة، كانت لحظة استرخاء عقلي لم أشعر بها منذ زمن، شعرتُ أنني أعرفه منذ أعوام، وكأنه مد جسرًا بين قلبَيْنا بلحظة واحدة، رددتُ على ابتسامته بابتسامة أكثر اتساعًا -على غير عادتي مع الغرباء- لم أخجل أو أحاول إخفاء شعوري بالألفة، لا أعرف سر ذلك الشعور القوي الذي انتابني لحظتها، مؤكد أن كل العلوم الإنسانية عاجزة عن تفسير مثل تلك الأشياء، لكنها تحدث حقيقةً.

نظراته البريئة في عينين غرقتا في التجاعيد صادفت في روحي شيئًا ما، ربما هو شجن الوداع، فأولئك الذين تشي انحناءة ظهورهم ورعشات أكفهم أن الرحيل قد اقترب يثيرون فينا ذكريات كل وداعٍ عشناه.

عاود النظر إليَّ: «رحلة سعيدة».

ابتسمتُ وشفتاي تفتشان عن الكلمات المناسبة: «شكرًا».

صَمَتُّ وَصَمَتَ، تشاغلت بمراقبة السحاب من النافذة، وعيناه تحجب عني الرؤية، الكلمات في عينيه تقاتل للخروج.

وددت لو أني أربت على كفه النافرة عروقها، وأخبره أنْ قل يا صديق ولا تتردد، بُح بكل ما في قلبك من شجون يثيرها الترحال، احكِ لي ولا تُخفِ شيئًا، فاسمك لا يعنيني وغدًا لن نلتقي، وليس بيننا غير أني سأمنحك أذني وقلبي لحظات من العمر، صافية لك وحدك، لا لشيء... سوى أنك أيقظت في قلبي شيئًا، شيئًا لا يتكرر في العمر كثيرًا.

لم يعطِني الفرصة لمحاولة التغلب على طوفان المشاعر، تنحنح فجأة ثم عاجلني بالسؤال عن وجهتي، ولماذا أنا مسافرة وحدي، وكأنه قرأ في عينَيَّ أني أفهمه.

نظرت إليه كصديق قديم ووجدتني أحكي ببساطة عن وظيفة الأحلام التي جئت لعمل مقابلة أملًا في الحصول عليها، كان شعورًا استثنائيًّا بالراحة والأمان كفيلًا بفتح أبواب القلب.

ثم بدأ يحكي هو الآخر ببساطة موغلًا في التفاصيل، بدا لي جائعًا للحديث، جائعًا جدًّا للشعور بالأنس.

حكى لي عن شبابه، كيف بدأ وكيف سقط وكيف عاود النهوض، الطريق الوعرة نحو الحلم حين يلخصه لك المنتصرون، تَتَراصُّ الصور المتباعدة في الواقع فتبدو قريبة للغاية من بعضها، أن تستخدم خاصية إسراع العرض في فيلم سينمائي فتمر كل أحداث الحرب في ثلاثين ثانية، يقع المصابون ويُحملون لسيارات الإسعاف، يدخلون حجرات العمليات، ثم يتماثلون تدريجيًّا للشفاء في عشر ثوان. ثم يعلن الحلفاء الهزيمة أو الانتصار ليتغير التاريخ في خمس ثوان. هذا ما يحدث حين يحكي لك أحدهم رحلة عُمْرٍ فتستشعر بعمق معنى أن كل شيء محتمل الحدوث ثم يمر، وتصير كل الآلام وكل الابتسامات ذكرى، فقط ذكرى.

- لكن منذ زمن لم يعد ثرائي مصدرًا لأي سعادة.

رفعت حاجبي في دهشة: «لكنه ليس ثراءً عاديًّا، يمكنك فعلُ أشياءَ خيالية لا يقدر عليها أحد».

- فعلتها كلها بالفعل، وفقدت بريقها، أولئك الذين لم يذوقوا الثمرة لديهم الدافع أن يقاتلوا كل يوم يحدوهم مذاق السكر، أما حين تفتح الصناديق المغلقة كلها لن يبقى في العالم شيء يغريك ويدهشك.

ابتسمت في عجب، خلق الإنسان في كبد.

حكى لي عن ابنته الوحيدة بنبــرة مرتعشة مترددة، كانت الكلمات تطل بحذر على شفتيه ثم تهوي يائسة، أظْهَرَ لي صورتها على هاتفه حين كانت رضيعة، ثم في ملابــس المدرســة، ثم في رداء التخرج من الجامعة، ثم في ثوب الزفــاف، وكانت هذه آخرَ الصــور، تلك الليلة التي فقدها فيها في حادث مروع.

- ثم تركتني ورحلت، ربما مَرَّ على تلك الليلة عشرون عامًا، لكن الألم لم تنزع شوكته من جدار القلب.

قالها بحروف مرتعشة خفيضة وأطرق صامتًا وقد اغرورقت عيناه بالدمع فما قدرتُ على منع دمعي، أنا التي لديها باب من فولاذ قادر أن يسجن خلفه طوفان دمع عجزت عن التماسك. بكيت وبكى وكأن كلَيْنا كان محتقنًا بالبكاء، أطلقنا معًا دموعنا السجينة وكأننا التقينا دون موعد فوق السحاب في ضوء الطائرة الخافت، فقط لنطلق معًا سراح نورس الأحزان في سماء القلب.

جفف كلانا دمعه، نظر إليَّ بِوُدٍّ وَرِضَا، وكأنه يقول شكرًا يا رفيقة الطريق.

كانت الطائرة تحلق بنا فوق المدن، ونحن غارقان في الصمت، حروفنا معلقة في الهواء، كان أُنسنا باللقاء والذكرى يغنينا عن الثرثرة.

الوقت الذي أمضيته مع عابري الطريق في حياتي المزدحمة بالعابرين كان أصدق ما في الحياة، كل الذي قالوه كان حقيقيًّا، من الصعب أن تنتظر من الآخرين الصدق إذا كان الكذب هو راحلتهم السحرية التي تحملهم بسرعة لأغراضهم.

سألت المضيفة ببساطة: «لحم أم دجاج سيدي؟».

فنظرنا إلى بعضنا وابتسمنا، وكأننا اتفقنا أن الحياة لا بد سائرة وعلينا أن ننسى، أو بالأحرى نتناسى.

كان للطعام نكهة لا تشبهها أي نكهة أخرى، هي لحظات من العمر.

هبطت الطائرة فودعته بحرارة، سحبت كفي بصعوبة من بين كفيه المتمسكتين وأسرعت إلى بوابة الوصول، وهناك التقيت مندوب الشركة الموكل بمقابلتي: «نحمد الله على السلامة، كيف كانت رحلتك؟ السفر وحيدة شاق للغاية، أليس كذلك؟».

ابتسمت بغموض: «وحيدة؟»، أدرت رأسي لأفتش عن رفيق الطريق، وجدته ما زال واقفًا بجوار حقيبته ينظر إليَّ، تطالبني عيناه أن أبقى، في الحقيقة كان شعورًا متبادلًا، فَقَلْبٌ تقابله مُصادفة على الطريق بإمكانه منحُك أصدق ما في الحياة، أو ما ضاع منك منذ بدأ الوجد، لكن هيهات، ها هنا دومًا عليها أن تنتهِيَ الحكاية، ويمر اللقاء مر السحاب في سماء العمر.

لوحت له من بعيد دون أن أنتظر الرد، تحركت في الاتجاه الآخر بصعوبة، بدا قلبي ثقيلًا، كتبت في مفكرتي الصغيرة اسمه والتاريخ، وعنوانًا أعلم أني لن أزوره أبدًا، وقوسين بينهما نقاط كثيرة، خرجت من المطار تحاصرني أصوات المسافرين، ضحكات اللقاء ونهنهات الفراق وثرثرات كثيرة عن كل ما لا يعنيني، ثم انتظار قصير آخر حتى موعد المقابلة.

كانت المقابلة أقصر مما توقعت، كانت المديرة في عجلة من أمرها، أسئلة سريعة في أثناء المرور بعينيها على سيرتي الذاتية، يبدو أن مؤهلاتي أعلى مما توقعتْ، وفزتُ بالوظيفة، هكذا ببساطة.

خرجتُ من المقابلة وكأنني في حلم، يصعب بالفعل تصديق ما حدث، غدًا سأبدأ حياة مختلفة، مختلفة تمامًا.

كان ذلك هو آخر ما فكرت فيه أو رأيته في ذلك اليوم العجيب، فلم أشعر بشيء بعدها سوى ارتطامة معدنية قوية وصوت صراخ، ثم لا شيء.

فتحت عينَيَّ في المشفى، نظرت حولي، كل شيء أبيض، وساقي في الجبس، والأربطة تحوط رأسي، مرت ثوان أحاول استجماع أفكاري، ثم صرخت في هستيريا: «الوظيفة».

فُتِح باب الغرفة على إثر صرختي: «حسنًا لقد استعدت وعيك، نحمد الله على سلامتك».

صرختُ في ذعر: «منذ متى وأنا فاقدة الوعي؟».

- منذ ثلاثة أيام.

أمسكتُ رأسي الذي بدأ في الدوار نتيجة توالي الصدمات.

تنحنح الطبيب محاولًا التقديم لشيء ما: «لا بأس، كل ذلك لا يهم، تتحسن حالتك ثم نتحدث».

- أريد الخروج حالًا.

- لا يمكنك السيرُ، الإصابة قوية.

- أريد الخروج حالًا.

- حسنًا إذا كنت مصرة وبإمكانك التحرك أنتظرك بمكتبي لإغلاق ملفك.

تركني ومضى وعلى وجهه تعبير أوحى لي أن ثمة شيئًا لم يُقَل.

استندت إلى الممرضة وخطوت بصعوبة بالغة نحو حجرته، تهاويت على الكرسي تاركة رأسي يسقط للخلف.

بادرني بقوله: «لديَّ خبر سيئ».

- حسنًا أعلم ذلك بالتأكيد، ساقي مكسورة ورأسي في الأربطة، لا توجد لديك مفاجأة لي.

- لا، بل لديَّ للأسف.

- الأشعة على ساقك أظهرت بالمصادفة ورمًا خبيثًا استشرَى في عظمة ساقك.

لم أصدق أذني، للمرة الأولى أفهم معنى ألا يصدق المرء أذنه.

- ماذا قلت؟

بدا الإشفاق واضحًا على وجهه.

- نعم، ما سمعته صحيح للأسف، لديك ورم بالعظام أتوقع كونه من نوع سريع الانتشار، تحديدُ ذلك يحتاج إلى بعض الفحوص الإضافية.

عجزتُ عن الرد، انسابت من عينَيَّ الدموع بغزارة، تأتي النهايات دومًا حين لا يتوقع أحد، أحقًّا هي النهاية؟

لكن... كنت أحلم أن أقف على قمة جبل إفرست، لأشاهد العالم من أعلى، كنت أحلم أن أرتدِيَ الساري الهندي وأضع تلك العلامة على جبهتي وأرقص على موسيقى الهند الشعبية.

كنت أحلم أن أبنِيَ مدينة للأطفال المشردين أمنحهم فيها حياة. كنت أحلم بمجد ما، وكنت قد حصلت عليه بالفعل منذ ثلاثة أيام، لماذا يضيع كلُّ شيء فجأة؟

- أريد العودة إلى البيت.

- لكنك تحتاجين إلى بعض الفحوص...

قاطعته في حسم بصوت واهن: «أريد العودة إلى مدينتي».

- حسنًا، سأساعدك على ذلك.

وبعد وقت قصير من القليل الذي تَبَقَّى من العمر... كانت السيارة الأجرة تحملني إلى المطار، تذكرت لقاء الطائرة، عينيه الغارقتين في التجاعيد، ابنته، حكاياته كلها.

عندما تكتشف فجأة أن دَقَّ أجراس الرحيل يهز جدران مدينتك الآيلة للسقوط منذ يوم بنائها، تُرى هل كان ذلك الموعد بتلك الأهمية؟ لا أظن، هل عملي كله كان يستحق كل ذلك القدر من التوتر واللهاث على طرق الحياة؟

لأول مرة أرى بوضوح أن كسر فنجاني المفضل لم يكن بذلك السوء، وأن العبارة السخيفة من زميلي بالعمل لم تكن بهذا القدر من الأهمية لإفساد صباحي، وأن زيادة الملح في الطعام ليس مدعاة للغضب، وأن رسوبي في الامتحان لم يكن كارثة على الإطلاق، وأن كسر ساقٍ لا يمكن اعتباره أبدًا أزمة حقيقية، وأن الفقد -أي فقد- لا يستوجب أن يغرق المرء في وهم الحزن.

حين تكتشف أن شواهد القبور ليست عالمًا آخر، وأن المسافة بيننا وبينها بضع خطوات على جانب الطريق، وأن الخوف وهمٌ، وأن الحياة كلها ساعة، وأنك أتيت إلى ذلك العالم ليحفظ اسمك ووجهك بضع عشرات من البشر، وحين ترحل ستُنسى أسرع مما حسبت.

الأيام حقًّا لم تكن بهذه الكثرة، والفجر والغروب قريبان، أقرب مما حسبت، وقد نسيت.

نسيت أن أخرج في الفجر وأمشِيَ بلا هدف، فقط لأتنفس ميلاد حياة وأسأل نفسي، لماذا أنا هنا.

دارت بي ساقية الحياة معصوبة العينين حتى نسيت أن أعيشها.

لم أتردد حين قررت شراء تلك الساعة الماسية باهظة الثمن، كان لشرائها نشوةٌ خاصةٌ، قلت لنفسي: «حين تلمع فصوص الألماس في معصمي سيكون للزمن نكهة الامتلاك»، لكنني منذ أحطت معصمي بها وعقاربها تدور كأي عقارب أخرى، كعقارب خشب، كعقارب صفيح، لا فارق.

توقفت العربة بي أمام بوابة المطار، ومن باب إلى باب، حتى بوابة بيتي، ساعدني السائق على النزول، نظرت إلى البيت بدهشة، متى أصابت الواجهة كل تلك الشقوق والأتربة؟ ومتى دهن الجيران واجهة بيتهم بذلك اللون الغريب؟ هززت رأسي في حيرة.

بذلت جهدًا خرافيًّا حتى وصلت إلى شقتي، ارتميت على فراشي، «لا شيء يهم».

أرسلت رسالة مقتضبة إلى مديري في العمل أني قررت أخذ إجازة طويلة دون إبداء أسباب، رسالة لوالدتي أني على ما يرام مع اعتذار ووعد بالاتصال لاحقًا، كان هذا كل شيء.

الباقون لا يذكرونني إلا عند الحاجة، غيابي لا يقلقهم بالتأكيد.

بضعة أيام دون أن أفعَلَ شيئًا لن تصنع فارقًا، أغمضت عينَيَّ وغرقت في النوم دون أن أبدِّلَ ملابسي.

وفي تلك الليلة، رأيت نفسي واقفة على قمة جبل شاهق الارتفاع، أمشي على حد سيف عملاق يربطه بقمة جبل بعيد، تحاصرني الطيور الجارحة والعالم تحتي صغير جدًّا، وفي البحر البعيد تراصت أسماك القرش مادةً فكوكها بانتظار السقوط، بينما كانت العصافير على الأشجار البعيدة تغني أغنِيَات حزينة وتُؤذِّن أن «حي على الحياة».

هكذا أحلام المطرودين من الحياة!

على صليب أنا معلقة، تتسرب من عروقي الذكريات، فأعيد كل فجر صرخات الصلب الأولى، لم أمت بعد، ولا أمل لي في الحياة.

لا طاقة لي للحزن أو البكاء، فحتى الحزن يحتاج قدرًا من الحياة داخلك لتشعُرَ به.

النوم، ثم النوم، الاستيقاظ قليلًا لتناول بضع جرعات من الماء وبضع لقيمات ثم معاودة النوم.

يبدو أنني مدينة لجسدي بالكثير، فقدت الكثير من وزني وصار مظهري أكبر من عمري بعشر سنوات على الأقل، لا بأس، فالجميلات لا يعشن أطول.

القطار يندفع بسرعة شديدة، لا يعطي أحدًا الفرصة ليختار، ليس كل الركاب سعداء بالوصول، البعض مضطر، تجرجر قدميه أغلال الاحتياج، وربما الخوف، الوصول ليس انتصارًا في كل الأحوال.

الفراشة تتهادى بلطف على ورقات الشجر، ترفرف بجناحيها الذهبِيَّيْن، بينما على الجانب الآخر من العالم تندلع نيران الحرب، كثيرون في هذا العالم لا يعرفون أبدًا لماذا هم هنا، لكنهم يتقاتلون على الحياة بشراسة.

الأسد يمزق الغزال، يلتهم فخذه حيًّا. هكذا يتم تصفية الحسابات في عالمنا، بمعرفة الغريزة الأساسية.

الشمس ترحل في صمت رهيب، تتجمد أوراق الشجر في أماكنها خشية الرياح، تحرك الطيور أجنحتها في وجل، دون أن تطلق صيحاتها المعهودة، تلتقي دون كلام فترحل في طريق واحدة.

لماذا تغير كل شيء فجأة، لماذا صمت كل شيء، لماذا أصبحت شخصًا آخر؟ أنا الطريق أم المسافر؟! أنا المطر أم الصحراء؟! أنا الوعد أم السراب؟! هكذا كانت تدور أعاصير الفكر في رأسي.

هذا الصباح، استيقظت ولديَّ شعور بالقدرة على الحياة، ربما عليَّ أن أقاوم؟ ربما.

أحسست بالرغبة أن أتمدد على كومة من القش أمام فرن بلدي ملتهب، وأستمع إلى حوارات الفلاحات البسيطة وهن يخبزن بِهِمَّةٍ لا تفارق وجوههن المحمرة ابتسامةٌ حقيقيةٌ، أحدق إلى السماء وأراقب السحاب وأسراب الطيور، وأمتع أنفي برائحة احتراق القش المختلطة برائحة الفاكهة القادمة من حديقة ما، يتسلل إلى أذني صوتُ إسماعيل ياسين في أحد الأفلام المصرية الكلاسيكية مختلط بضحكات عجوز لا يكاد يقوى على الضحك، ثم تناديني أمي من أجل الغداء وتخبرني أن «المحشي» ساخنٌ والحمام مثير للجنون، فأقفز متحمسة إليها، لا أفكر فيما مضى ولا ما سيأتي، يكون ذلك هو عالمي كله وكفى.

استلقيت على الأريكة بلا مبالاة، ضغطتُ الهاتف تطبيق الفيس بوك ذلك الذي لم أقربه منذ عامين تقريبًا، بحثت في ملفات الهاتف عن كلمة السر حتى وجدتها، وبدأت بالتصفح، جرت عيناي على عناوين منشورات أصدقائي الافتراضيين بسرعة شديدة:

- مساء الخير يا بنات، عضَّنِى كلبٌ، المستشفى بعيد، الحقنة ضرورية؟

- مصر تغرق تحت الأمطار وشلل تام في حركة...

- يقتل جاره بسبب...

- يا جماعة الخير رشحوا لي غسالة بسعر ٦ آلاف على أقصى تقدير والبرنامج...

- اكتشاف دواء جديد لعلاج...

- من فضلكم يا بنات طريقة كبسة اللحم...

- مساء الخير صبايا كيف حالكن، عندي سؤال، صبغة الشعر، أنواعها الجيدة..

- استقالة وزير التعليم في...

- مسابقة من يمكنه نفخُ أكبر علكة يفوز بها...

- ما رأيكم بشراء شقة في مجمع مدينة...

- طريقة جديدة لعمل القرنبيط مثيرة للشهية...

- سأعرض عليكم مشكلتي مع حماتي لأنها هي...

- مصرع سبعة أشخاص في تصادم مروع على...

- كل سنة وأنتِ طيبة يا حبيبتي بمناسبة...

- هل لدى أحدكم خبرة بمشكلات الويندوز الخاصة بـــ....

- انتحار طالبة في الصف الخامس الابتدائي بسبب...

- دِلُّوني على فرص الحصول على مقعد جامعي بحالة...

أغلقت التطبيق بسرعة، حسنًا لم يفتني الكثير في العالم الأزرق.

حمام دافئ ربما يساعدني على التفكير، لا قدرة على ابتلاع الطعام.

ارتديتُ ثوبًا قاتمَ اللون وأسدلت شعري الناعم في اهتمام، ربما تكون تلك هي المرة الأخيرة التي يمكنني فيها فعلُ ذلك، فالعلاج الكيماوي يضطر المرأة إلى أسلوب مختلف من الزينة، ضحكت بسخرية.

البدايات دائمًا صعبة، وحتى تلطمنا النهاية فلا شيء سوى الانشغال بالوصول.

نزلت من البيت، فوجدت سيارتي ما زالت في مكانها منذ اليوم المشؤوم، حسنًا فلترقدي في سلام، لقد حمَّلتك كثيرًا فوق طاقتك. أشرت إلى سيارة أجرة، فحملتني باتجاه المشفى الخاص الذي تعودت ارتياده.

انطلقت السيارة بين زحام البشر الفارغ في شوارع الموتى الساعين بلا انقطاع في كل اتجاه، كانت ضوضاءُ همجيتِهم غريبة على أذني، ربما لأنها المرة الأولى التي يفرغ فيها عقلي للنظر بتركيز فيما حولي بعيدًا عن انشغالاتي التي لا تنتهي. ولأول مرة أكتشف أن شوارع المدينة تستمدُّ صخبَها من سيمفونيةِ الحياة، أكثرَ مما تستمده من أبواق السياراتِ الغاضبة.

وانتقلت الإشارة إلى اللون الأحمر، وبدأ العد التنازلي، ولأول مرة أشعر كم هي طويلة الثانية، تدق بكعبها العمر في خيلاء، تخرج لي لسانها وتتباطأ أكثر وأكثر، وترمي بثقلها على أعصابي الهشة، أخيرًا، وصلنا.

المشفى يقع في شارع مزدحم بناياته قليلة متقاربة الارتفاع، تمتد في نظام، حتى يظهر سورُ قصر قديم، يبدو شامخًا بمصابيحه الصفراء المجدول نحاسها بأنامل فنان حساس، المنتشرة على محيط السور، وذلك الظهور العشوائي للطوب الأحمر مُطِلًّا برأسه من أسفل الدهان الذي دقه الزمن، دقة دقة، ربما ليلفت الانتباه لتاريخه الطويل الغامض، وربما ليتساءل بفضول من تحت الغطاء، ما الذي تغير في العالم بعد كل تلك السنوات؟! وهل ما زال بناء الأسوار العالية واحدًا من تقاليد البشر الأساسية؟

توقفت العربة، فدققت في اللافتة المعلقة على بوابة المشفى لأتأكد أنني في العنوان الصحيح، متى نبتت في المكان كل تلك التفاصيل؟ جئت إلى ذلك الشارع مرات كثيرة لأغراض روتينية، لم أنتبه يومًا لما حولي، أما اليوم عليَّ أن أعيد النظر في كل شيء، فثمة انتماء وُلِدَ داخلي قهريًّا لذلك العالم الصغير، هنا المحطة الأخيرة في قطار العمر، كل العابرين حولي بخطى سريعة سيكملون الطريق، بينما أبقى أنا وحدي، على موعد مع الموت.

وفي الحجرة المخصصة، سلمت يدي للممرضة لتركيب مدخل وريدي لسحب العينات اللازمة، فبادرتني بابتسامة مجاملة: «معذرة سيؤلمك إدخال السن قليلًا».

ابتسمتُ بسخرية، وفي أثناء مرور السن عبر جلدي، لم أشعر بالألم، للمرة الأولى لا تزعجني سن الحقن، كان لديَّ «فوبيا» منها في السابق.

تراها تفهم تلك الخلايا العصبية أنها تستعد لاستقبال آلام أورام العظام؟ فما عاد بإمكانها التنبه لإدخال سن الكانيولا؟! لا أحد يعرف إلى أي حد تصل آلام أورام العظام إلا الذين عاشوها، لا أحد يتصور الحدود الحقيقية للألم..

لا شيء يهم.

انتهت من مهمتها وتوجهتُ أنا في طريقي إلى عيادة الطبيب، لأحكِيَ له عن اكتشافي للورم، فأتلقى بعض العبارات السخيفة المحفوظة عن الأمل والإرادة، الأطباء يجيدون الوعظ أفضل من مغسلي الموتى، فهم يراقبون عملية الألم والموت في كل مراحلها، بينما يتلقى المغسل الجثة فقط.

عليَّ بعد الوعظ أن أُظهِرَ الاقتناع ثم أبدأ بتلقي جرعات العلاج الكيماوي، لتسرِيَ في عروقي مرارة الموت قبل الموت بأوان.

حسنًا، فلتبدأ المسرحية.

جلستُ قبالة الطبيب المختص، بدا لي إنسانًا آليًّا يرتدي معطفًا أبيضَ، عيناه خاليتان من التعبير ووجهه كما لو كان بلا ملامح، أخرج ورقة بيضاء وراح يسألني بعض الأسئلة الروتينية وهو يدون الإجابات دون أن ينظر إليَّ، قاطعته بآلية مماثلة: «لدي ورم بالعظام».

رد دون أن يرفع عينيه مواصلًا الكتابة: «وكيف اكتشفتِ الورم؟».

تنهدتُ، وسرحتُ بخيالي بعيدًا، ثم قلت ببساطة: «كان لديَّ موعد، موعد مهم جدًّا».

رحيق الحياة

كل هذا الظلام حولي، أو.. ربما داخلي!

ما الذي ألقى بي في ذلك الوضع الغريب؟ كنت ممددة على أريكة غرفة المعيشة ورأسي ساقط بين هاتفي وكتاب وطبق فاكهة مقلوب، بينما يثرثر التلفاز باللغة الإسبانية، ما الذي حدث؟

يبدو الأمر كما لو كنت قد سقطت في النوم في حالة سُكر بيِّنٍ، أهكذا يفعل الحزن بالإنسان؟!

نهضتُ متجاهلةً آلام رقبتي، وجلستُ هنيهة أحدق إلى الأرض.

استيقظت كلماته الأخيرة من جديد في ذاكرتي فتذكرت كل شيء دفعة واحدة، لحظات النهاية، ويا لها من نهاية، اجتاحتني موجةُ نار.

ابتسامتُه، نظرتُهُ، عالمي الزاخر بالمشاعرِ والفِكَر في عينيه، ما أصعب الفقد.

اختلاجةٌ خفيفةٌ في جفونِه كانت تكشفُ لي الكثير، ولحظة يُطرِق فيها كانت تُفجرُ ثوراتٍ في أعماقي.

نيران عينيه كانت تحرق إرادتي، طالما كان وطنًا لروحي التائهة، حين يُغير علي كإعصار فتتهاوى أعماقي في لحظات حتى أظن أن لا مستقر، ثم يعود فيهدأ، فتنسيني ابتسامته ما كان في لحظات.

ارتاح رأسي المتعب على صدره يتلذذ بدفء رجولته، الدفء الذي طالما افتقدته مهما تدثرت بألف معطفٍ وغطاء.

علمني لغة العيون، وكيف ترتجف الجفون الظمأى وكيف تحلو النظرات وتطول، وتطول، فلا سأم ولا ارتواء.

علمني كيف تتلامس الأهداب فيبدأ العزف في سيمفونية الحياة، فإذا همس باسمي عشقته، وإذا ضمني لصدره تذكرت ألف بابٍ تعودت أن أغلقهم بحثًا عن أمانٍ لا يأتي أبدًا.

إغماضتُه القصيرة وأنا أحكي له حكاياتي تُنبئني بفوران براكينه، تنهيدة طويلة يطلِقُها عاصفةً تقتلعني من جذوري، وترمي بي بعيدًا حيث الجدب والقفر!

زلزلةُ وقع أقدامِه حين يقترب تعبث بأعمدة مملكتي حتى توشك على الانهيار، وآهةٌ طويلة تعودت أن أحتوِيَها في ثنايا الروح لأتدفأ بسخونتها عندما يأتي موعد الفراق ويتركني.. ويرحل.

هو نصف تاريخي، حكاياتنا، نقاشاتنا، أحلامنا، حتى المزاح والغضب، هم نصف عمري إن لم يُحسب العمر بالسنوات.

فإن انتُزع الآن مني مُحِيَ نصفُ تاريخِي، ذلك النصف الملآن بالحب والحياة.

بَنَيت من حروفِه قاربًا ونسجَت من ضفائري شراعًا، وأبحرت إليه تدفعني رياح الشوق العاتية، هاجرت -بلا أمتعة- من صقيع وحدتي إلى دفء دنياه.

لكن الرياح خائنة وموج عينيه غادر، والعودة إلى وحدتي قدر.

عليَّ الهروب من رأسي، الهروب من نفسي، الهروب من الحياة كلها.

ارتديت ملابسي الرياضية على عجل، ورحت أقفز على درجات السلم اثني عشر دورًا لم أشعر بهم، كان بداخلي طاقة جبارة من الغضب والرفض والعشق الكسير.

رحت أجري بمحاذاة رصيف الشارع حتى انحرفت إلى طريق النادي الرياضي، كنت أجري بأقصى سرعة، خطواتي تنهب الطريق، قلبي بركانٌ يوشك على الانفجار، أريد أن أتنفس دون ألم.

لماذا تركتني وحيدة أبحث عن قامتك في ظلال الشجر، وعن قلبك في ظلال الحجر؟

لماذا جعلتني أنزع شعاعَ الشمسِ وأخفيه، أجمعُ السحابَ في جيوبِ معطفي، أرجو الزهورَ ألا تتفتح، أقنع العصافير أن تُضرب عن الغناء؟!

لقد صدقت أنك أحببتني، وآمنت أنك الحياة، الآن، لن أترك شعاعَ الشمسِ يمرحُ مرةً أخرى في عالمٍ بلا صدق.

أُومِنُ أني لا أستحق سوى الموت، أومن أني غبار كثيف على وجه الحياة، بانتظار رياح شجاعة تهب لتطهِّرَها مني. طفيلية أنا، عاجزة دومًا عن الاستمرار إن لم يمدَّني قلبك بالحياة، ما أكذب الحب، وما أقساه العجز!

لم أتوقف لحظة عن الجري، رغم أني تقريبًا لا أرى الطريق أمامي، ربما عبر بجواري كثير من الوجوه، ربما أعرفها وربما لا أعرفها، لا أعلم، فكلماته الأخيرة حجبت عني العالم.

سقطتُ فجأة على الأرض، لا أعرف بالضبط متى خارت قواي، فلم أكن أشعر بشيء، فقط رغبة في الجري حتى حافة الوجود.

شعرت بأكف ترفعني، ورأيت من خلف الضباب عيونًا تحدق إليَّ في فضول وشفاه تتحرك، يبدو أنهم يقولون شيئًا ما، لكني لا أسمع إلا كلماته.

هل ثمة شيء يسد أذني؟! لماذا أنا عاجزة عن السمع، بينما تصرخ كلماته وحدها في أذني؟!

شعرت بقطرات الماء على وجهي، يحاولون انعاشي، بدأت تتسرب إلى وعيي أصواتهم المتداخلة، حركت شفتي بصعوبة، فقلت إني بخير، أشهر كذبات المتعبين.

حملوني إلى بيتي، ذلك الغريب إذا غاب عنه وجهه.

وجدت نفسي مرة أخرى على نفس الأريكة، ما زال الكتاب والهاتف وطبق الفاكهة المقلوب في أماكنهم، وما زال التلفاز يثرثر بالإسبانية، وما زالت كلماته تحتل أذني، والساعة واقفة لا تتحرك أبدًا، لماذا تعطلت اليوم تحديدًا؟!

لم أستطع القيام من مكاني، لا أعرف هل هو التعب؟ أم موت الرغبة في الحياة.

من أسكرته نشوة الحب ثم فارق، حلت عليه لعنة العشق، لا هو مرتاح كالجاهلين لطعمه، ولا هو ارتوى مما قد ذاق وعرف..

الفراق، ذلك الذي به نعيد اكتشاف الأشياء.

تحايا الصباح والمساء، تلك التي نردها في العادة سريعةً مبتورةً دون التفات؛ منشغلين عنها بكل شيء؛ الفراق هو اللحظة التي نعرف فيها كم كانت دافئةً تصنع الأيام؛ وأن غدًا نخرج بلا سلام لنتعثر في ثلوج الطريق.

صوت المفتاح في الباب في وقت متأخر، ذلك الذي ينقلب عند سماعه نومُنا الأرِق المتردد إلى نومٍ عميقٍ منتظم.

الفراق، هو اللحظة التي يرقد فيها المفتاح على الطاولة، ونشد الغطاء على آذاننا علنًا لا نسمع أنين صمته.

الإلحاح السخيف لنتذوق شيئًا لا نشتهيه، الفراق هو أن نكتشف كم كان لطيفًا صادقًا.

صوتُ اصطكاك الملعقة بالكوب الزجاجي ورائحةُ الشاي الزكية بعد العصر، الفراق أن يصبح الكوبان كوبًا واحدًا، تتجرعه وحدك، محدقًا إلى الأرض بلا كلام؛ فقدتْ خلايا التذوق

بلسانك قدرتَها على التمييز؛ تُرى هل ينقصه السكر؟!

ليالي الشتاء الباردة، الفراق هو أن غطاء صوفيا فاخرا يعجز أن يمنحك الدفء الذي منحه دومًا التصاق جسدين.

الطريق الطويلة، تلك التي تختصرها الثرثرة فنظنها خطوتين، الفراق هو أن نكتسب للمرة الأولى مهارةَ عد الخطوات ومراقبة الطريق، وإن كانت أولها تشبه آخرها.

الفراق.. حين تصبح للأشياء الصغيرة فجأة قيمة كبيرة:

أوراقه المهملة، فنجانه الخاص، كوفيته المنسية، ساعته المعطلة، علبة سجائره الفارغة، وخاتمه الذي ضاقت به إصبعه.

هل تصبح مقتنيات ثمينة؟ أضعها في متحف سري على أحد أرفف الخزانة، أزوره وحدي كل حين، أقلب أشياءه العادية بين يدي، فتنقلني إلى عالم غير عادي، تتداخل فيه الأحاديث القديمة في عقلي كراديو تتغير محطاته بسرعة، بين حديثٍ هادئ وصراخ، بين ضحكاتٍ ونشيج، بين مواقف كبيرة وأخرى صغيرة، بين أحلام الغد التي صارت ماضيًا... وماضٍ قديم صار بعيدًا جدًّا.

تتقلب المحطات بسرعة، ويتقلب معها قلبي، كسيمفونية يعزفها عبقري مجنون، يطير بي بسرعة عاليًا على ظهر الوتر المشدود، ثم يرتخي فجأة، لأسقط حطامًا على صخور الآه.

الفراق... اللحظة التي تتحول فيها طقوس اللقاء من تلامس الأكف والصدور والعيون... إلى لمسِ إطارٍ أصم، به صورة تبتسم حيث تتفجر الدموع، وتاريخٌ عليها وبعضُ غبار، وحديث نفسٍ وحيدة سقطت في هوةِ ذكريات.

ربما لي بعده حياة، لكنها أبدًا لا تشبه الحياة.

اكتشفت فجأة أني أحدق إلى التلفاز الذي ألغيت صوته منذ رحل، لكني في الحقيقة لم أكن أرى شيئًا!

حاولت أن أنهض من مقعدي لأفعل أي شيء، أي شيء ينتشلني من الإعصار، لكن ساقَيَّ كانتا معبأتين بالرمل، أو الحديد ربما، جرجرتهما بصعوبة إلى حجرة النوم، ألقيت بنفسي على الفراش البارد، أغمضت عينَيَّ في استسلام وغرقت في النوم.

رأيت نفسي أسير حافية على طريق مظلمة، الأرض خشنة جارحة، لا أعرف من أي اتجاه أتيت، ولا أين تنتهي الطريق، تؤلمني قدماي فلا أقوى على الوقوف، لا أعرف كيف أعود، ولا طاقة لي لمحاولة المسير، أبكي وأصرخ، أتقدم خطوة ثم ألتفت لأخطُوَ في اتجاه آخر، ثم أعود لمكاني، وصدى صراخي يملأ العالم من حولي، ولا أحد يلوح في الأفق.

قست عليَّ أحلامي حد الجنون لليالٍ متوالية، صار النوم أكثر إيلامًا من اليقظة والكلام أكثر خواء من الحديث، والنور أكثر سوادًا من الظلام.

صرت أرجو الأيام أن تمُرَّ لعل جراحي تلتئم، لكن سيف الوقت المثلوم يمر على عنقي كل ساعة، فلا أموت ولا أحيا.

تمر الأسابيع ولا شيء يتغير، لا يخمد بركاني ولا أنساه.

وبعد غياب طويل، جاءتني كلماته عبر رسالة قصيرة، كلمات باردة، قاسية، محبطة، تنذر بعاصفة...

كلمات فيها من الجفاء والقسوة ما يكفي لبناء جدار فولاذي بين قلبينا... لكنها على كل حال، كانت كلماته، كلماته هو.

وجدت نفسي دون وعي، أعاود قراءتها مرات ومرات، وأبتسم بانتشاء.

لا ضير إن كانت كلماته قاسية، يكفيني أنه ردد اسمي حين كتبها، يكفيني أنه انسلخ من عالمه المزدحم لدقائق وفكر فِيَّ وحدي، وحدي أنا، لا يهم فيما كان يفكر، المهم أنه ذكرني، فقسى وَجَفَا وأوجع.

أوجعني أكثر يا حبيبي، سوط كلماتك يوقظ في خلاياي الحياة.

أوجعني يا حبيبي، فآهاتي بقربك خير من ابتسامات زائفة في الغياب، أوجعني يا حبيبي لكن عُدْ، أرجوك عُدْ إليَّ.

اكتشفت فجأة ما أنا فيه من ذل، أيفعل الحب بي كل ذلك، انتزعت الهاتف ورحتُ أبث صراخي وغضبي حروفًا وكلمات، كنَمِرةٍ جريحة أصابَها سهمُ الصيَّادِ عَلَى بُعْدِ عُمْرٍ من عشق.

كنت أعْزف الكلماتِ في سيمفونيةِ عشقٍ حزينةٍ، يقطعها بين فينةٍ وأخرى نشازُ وترٍ منهار.

لم أكن أعي تمامًا ما أقول، ربما تلمَّست في سياطِ كلماتِي شفاءً لبعضٍ من جُرحي الدامي.

يظنني كرةً من بلور، سقطتْ على أرضه الرخامية السوداء، فتفتتتْ، تناثرتْ، تاهتْ، لم تبقَ منها سوى ذرات بيضاء متباعدة، ذابت بين عروقه والتحمت بها.

يظنني عصفورة، أطلقَ رصاصه فشُلَّ جناحاها وهي على ارتفاع ألف ميل لتسقط في عرض البحر.

يظنني شعاع نجم مبتسم انطلق بكل طاقته مرحًا عبر السماء فابتلعته غيمة سوداء حزينة.

لا، أنا لست سوى شمس، ربما يمتد شعاع نورها إلى ما بعد المجرة، وربما يرتد إليه بعد ملايين السنين حين يرتطم بمرآة جنونه، وربما لا يرتد أبدًا إذا ابتلعه ثقب أسود، كهذا الذي في عينيه.

حتمًا سيأتي يوم وأنساه، أتحرر من قيده، أمحوه من تاريخي، سيأتي يوم وتهدأ أنفاسي ويكف قلبي عن قرع ضلوعي والصراخ باسمه، سيأتي يوم وأتخلص من سيطرته على عقلي وأصبح كيانًا كاملًا مكتفيًا، لا مجرد فراشة تائهة لا تقوى إلا على الالتصاق بكفه لترشف منه رحيق الحياة، إن شاء سقاها، وإن شاء حرمها.

رن جرس الهاتف، ذلك الأخرس منذ أسابيع، بدا لي صوته كانفجارٍ في كوكب صامت.

تركته يرن طويلًا خائفة من الرد، ثم مددت يدي نحو السماعة، وما زلت لم أحسم قراري، رفعتها بأنامل مرتعشة، وضعتها على أذني دون كلام.

جاءني صوت ضجيج السيارات وأنفاس هادئة، ولا أحد يتكلم..

حاولت أن أرد بقوة وثقة، أن أُشعره أني أعرف أنه هو، وأن الغياب لم يؤلمني وأن حياتي ملأى دونه، فخرج صوتي محشرجًا ضعيفًا مهزوزًا، فابتلعت الكلمات بسرعة.

سكتُّ طويلًا، ولكني عجزت أن أضع السماعة في مكانها. ما زال يؤنسني صوت أنفاسه، ما زال يؤنسني صوت ضجيج السيارات حوله وهو يحدثني على الطريق، ما زال يؤنسني صمته.

ما تمنيت شيئًا في تلك اللحظة سوى أن ينطق اسمي، فقط كلمة واحدة منه تروي شقوق أرضي العطشى، قلها لعل زهرة ذابلة تشد عودها وتشرع أوراقها وتشرئب بعنقها نحو النور، قلها يا أميري، لعلك تبعثني من رقدة ألف عام في قبو مظلم أنتظر فجرًا أقسم عليَّ ألا يبزغ إلا على بقايا العمر.

قلها حبيبي، أرسلها تسري في دمي لتحييني، عرفت الآن فقط الفرق بين الموت والحياة، عرفت الآن فقط أشياءَ كثيرة، وكأن حُجبًا رُفعت، وإلهامًا تنزل، فصرت فيلسوفة، قلها حبيبي، فقد أعدت خلقي وتصويري، قلها حبيبي، فأنا صرت شيئًا آخرَ عظيمًا، قلها لتملأ أجنحتي الفضاء، قلها حبيبي، كفاك صمتًا.

كنت أستجديه بكل روحي دون أن أنطِقَ حرفًا واحدًا.

طال الانتظار، والسماعة لا تزال بيدي، حتى صعقني الصمت فجأة حين اختفى صوت السيارات والأنفاس، صرخت باسمه، رحت أصرخ بلا انقطاع بصوت مبحوح ضعيف، أعتصر السماعة وكأنه مختبئ داخلها، حتى ألقيتها من يدي، اندفعت نحو إطار صورته المعلقة على الحائط، انتزعت الصورة من الإطار، حدقت إليها بِتَحَدٍّ، هممت بتمزيقها، حلقت روحي نحوها كفراشة، التصقت بجناحيها.. وشرعت ترشف بِنَهَم.

الشبر

تراصوا جميعًا في خط مستقيم، يفصلهم عن الجدار شبر واحد، ممنوعون هم من ملامسة الجدار لتئن بلا نهاية عضلات ظهورهم المرهقة، بدت انحناءة التعب جلية على الجميع، الرؤوس منكسة، الأكتاف متهدلة والذل سيد المكان، العيون مختلفة الألوان والتفاصيل لكنها تحمل جميعًا بصمة الخوف. الأفواه مختلفة الشكل لكنها تتشابه في انطباقها العاجز، الأعمار متفاوتة، لكنهم جميعًا على مسافة واحدة من نهاية محتملة.

الشمس تشرق ثم تغيب بينما لا شيء حولهم غير الظلام، تقدير الوقت أو عد الأيام لم يعد من اهتمامات أحد منهم.

تجمد الزمن وهم وقوف في صف الألم، في تلك اللحظة من العمر أصبحَت أغلى أمنياته أن يسنِدَ ظهره لجدار بينهما مسافة شبر على الأكثر، يا لبؤس الحياة!

في تلك اللحظة نَسِيَ فجأة جشع إخوته وإصرارهم المستميت على الاستئثار بميراث الأب، عينَي أخيه الأصغر اللتين طالما وصفهما بعيني ثعلب، هما الآن عينان عاديتان، في تلك اللحظة نَسِيَ طهي زوجته السيئ الذي أشبعها بسببه سخريةً، ونَسِيَ غيرته المَرَضية عليها من جاره ذي القامة الفارعة والشارب المنمق، تُرى أيبدو الأمر له الآن حماقة صبيانية؟!

ثم نَسِيَ جدول أعمال الشهر وهاتفه الذي لا يكف عن الرنين، وتلك الندبة في جانب وجهه التي فعل المستحيل لإخفائها فلم ينجح، لم تكن بذلك السوء، الإنسان يتغير.

ثم نَسِيَ فشله بالامتحان الذي أشعل ثورة من الغضب داخله، السكرتيرة الحسناء وعينيها اللوزتين، منافسه غير الشريف الذي طالما قض مضجعه، مرض ولده الأصغر وموعد عملية القلب المقررة.

فكر فقط في الجدار، ذلك الذي يفصله عنه شبر.

جدار بارد قذر غير مستوٍ، خشن، تتناثر عليه النتوءات الجارحة والحفر، وتزحف عليه أسراب النمل الباحثة عن بقايا طعام، لكنه يفكر فيه ولا يرى سوى احتياجه إليه.

حجب عنه ماضيه بسهولة، محا من ذاكرته ذلك المشهد الذي يهاجمه في أحلامه، ذلك المشهد الذي أخفاه عن الجميع فأذلته محاولة طمسه الفاشلة، تلك الليلة التي فعل المستحيل لينساها

تقلصت تدريجيًّا في مساحة ذاكرته المرهقة، وبلا جهد اختفت، لم يعد لها مكان الآن، فهو يفكر في الجدار.

حجب عنه أحلام الغد أيضًا، حين اكتشف أن ما لديه أكثرُ كثيرًا مما يحتاج، وأن المزيد لن يصنع فارقًا ذا قيمة، وأنه انشغل بالطريق فَنَسِيَ الهدف، وأن السعادة كانت أقرب إليه مما حسب.

انمحت من قاموسه لفظة «ندم»، اكتشف أخيرًا أنه ليست كل الأخطاء مدعاة للندم، فتذكر أخطاءه وتساءل آسفًا، هل كان من الممكن ألا أفعل؟

طوفان المشاعر الذي يجرفنا في طريقه فنندفع مسلوبي الإرادة، حين نصل إلى منتهى الغضب، أو منتهى الاحتمال، أو منتهى الحب.

تلك النقطة يستحيل عندها التحكم، ويصبح حساب أنفسنا أيضًا خطيئة.

الحساب الحقيقي حينئذ يجب أن يكون.. لماذا تركنا أنفسنا ننزلق على المنحدر حتى سلمنا إرادتنا صاغرين؟

الألم يجتاح عضلات ظهره كموجة حارقة، لم يعد قادرًا على الصبر، وغير مسموح بالأنين.

«الجدار، دعوني أستند إلى الجدار» تتردد الفكرة بعقله عشرات المرات بشكل متصل، بالإيقاع نفسه، بالرتابة نفسها، حتى الملل أو اليأس لم يعد قادرًا عليه، بإمكانه أن يطالِبَ بملامسة الجدار مئات المرات، وحتى آخر نفس بصدره.

«افرد ظهرك» انطلقت الجملة كرصاصة اخترقت الأرواح المنهكة، لم يعد بالإمكان فرد الظهر، لكنه سيفرده، فالخوف يفعل ما تعجز عنه الإرادة، الخوف يمنح قدرات خارقة يستحيل أن يصدق المرء أنها له، سيفرده، ما زال بإمكانه الوقوف لساعات أطول، هذه ليست نهاية الحد، غريزة البقاء تخلق أجنحة إذا لزم الأمر ليفكر في الجدار، فقط، في الجدار.

هو الآن في فقاعة عازلة عن المكان والزمان، والجدار احتل عقله بالكامل، لكن لا قلق، سيرتد عقله بصيرًا ذات صباح، حين يُسمح له بملامسة الجدار، في تلك اللحظة سيقترب من الجدار متلهفًا وكأنه إكسير الحياة، سيلمسه بأصابعه المرتعدة كما يلمس شيئًا قدسيًّا، سيبدو التصديق صعبًا، سيسند ظهره ببطء وكأنه يخشى أن يفيق فلا يجده، سيغمض عينيه بقوة مطلقًا آهة طويلة مندفعة من أعماقه آخذةً معها كثير ألم.

سيتسرب له بخبث الإحساس بالأمان، سيتلمس أثر تطبيع الحياة فينسى بسرعة مذهلة عمر الحرمان وكأنه لم يكن، يعود بشراسة لذاكرته القديمة، يبدأ تلقائيًّا وبسرعة إعادة حساب الميراث في ذهنه المكدود مستنفدًا آخر مصادر الطاقة به، يتذكر طهي زوجته السيئ ويهز رأسه في نفور، فما زال بالعمر متسع لحياة، يتحسس الندبة في جانب وجهه بغضب، ها هو عاد قادرًا على الغضب والرفض!

يلعن من جديد الطبيب الفاشل الذي كلفه الكثير لإخفائها بلا فائدة، وربما يفكر في مقاضاته أيضًا، ثم يحاصره المشهد القديم، يقترب، ثم يقترب، يلامس جدران عقله، يضغطها ويعتصره... بالضبط كما في أحلامه، لن يهرب منه أبدًا، سيتمدد بخبث وينشب مخالبه في مساحة ذاكرته الحرة بعد أن رحلتْ عنها سطوة الاحتياج، سيرتاح ظهره، بينما يعود ذهنه ليئن بزحام الرغبات، فقط، إذا سمحوا له أن يسنده إلى الجدار.

«افرد ظهرك».

أوراق امرأة معلقة

ليس أطول من ليلِي، وحدي من جديد، لا شيء غير وقع أقدام ذلك النجم البعيد على قسوة الظلمة، يسير في أناة، يتردد صدى خطواته في أذني وحدي.

ربما لا يدرك كونه نجمًا، ربما لا تُمثل تلك السماء بالنسبة إليه أكثر مما تمثل تلك الأرض بالنسبة إليَّ!

يسبح وحيدًا بها، ينظر إلى الأرض من بعيد ويتردد في أذنيه وحده صدى وقع خطواتي على قسوة الأرض السوداء.

التقطتُ بتراخٍ دفتر مهماتي من على الطاولة، ذلك الدفتر الأزرق الصغير الذي اشتريته منذ سبعة أعوام تقريبًا، من وقتها وأنا حريصة على تسجيل كل المهام المطلوبة مني به، بدقة شديدة، بتفصيل واضح.

فتحت الدفتر وبدأت التصفح، هنا كتبت «مراجعة طبيب الأسنان بشكل عاجل»، كان ذلك منذ ستة أشهر، في الحقيقة لا أذكر السبب الذي دعاني إلى كتابة ذلك، ربما ذلك الالتهاب الذي أصاب اللثة وحرمني النوم وقتها، لكن ربما أقوم بالمهمة يومًا ما، فلا بد من مراجعة طبيب الأسنان كل فترة على أي حال.

هنا كتبت زيارة حارس العقار بالمشفى العام لإصابته بكسر في الكاحل، أفلتت مني ضحكة ساخرة عالية، كان ذلك منذ أربعة أشهر، تُراه قد فك الجبس؟ لا أعرف ما معنى سؤالي عن صحته بعد هذه المدة، ربما يكون قد نَسِيَ الأمر، لكن فلتبقَ المهمة راقدة هنا، لا بأس.

إصلاح مكيف حجرة المعيشة، عدت للضحك، بالطبع لم يعد لذلك فائدة بعد أن نقلت التلفاز إلى حجرة النوم، فمشاهدة التلفاز وأنت ممدد على فراشك الوثير ناعمًا بالدفء له طعم أكثر لذة.

وهنا كتبت شراء فانيليا لإعداد كعكة البرتقال لتقديمها في صبيحة العيد، لا أعرف تحديدًا أي عيد كنت أقصد، فالأعياد كثيرة والبرتقال انتهى موسمه منذ زمن.

راحت أصابعي تعبث بالصفحات وتمر عيناي بسرعة على المهمات التاريخية المحفوظة في الأرشيف، لا بأس.

ألقيت بالدفتر على الطاولة في لا مبالاة.

لكن ذلك لا يعني أبدًا أنني امرأة تائهة مشتتة تتساقط من جيوبها الأمنيات بينما هي تهرول على الطريق الخطأ. كل ما في الأمر أن اليوم أحيانًا يصير أقصر مما يجب فتتراكم المهام دون أن نتمكن من إنجاز كل شيء. الجميع يفعل ذلك، نعم، أنا واثقة من ذلك.

وبصراحة شديدة كل ما فات ليس مشكلتي الحقيقية، فليذهب دفتر مهماتي إلى الجحيم.

ولكنها «قفة العضم» الراقدة على أريكة غرفة المعيشة، بها عظام رجل كاملة.

قالت لي أمي وأنا طفلة: «الرجل هو سند المرأة وإن كان «عضم في قفة»».

ولقد سرت على نهج أمي الوفية، أقدس الحياة الزوجية، وأحتفظ بعظام زوجي معي في قفة متينة.

حين يعود من عمله يفتح الباب بالمفتاح بهدوء شديد، فلا أتمكن من إدراك وصوله، يتسلل دون أن تَمَسَّ قدماه الأرض إلى غرفة مكتبه، لا يخطر بباله أبدًا ضرورة تبديل ملابسه أو الاغتسال أو تناول الطعام، إنه يزحف مباشرة إلى جحره فيختبئ وراء شاشة الحاسوب ويبدأ الحياة، أو ربما الموت.

عيناه خاويتان، لا تكاد ترى فيهما أثرًا لمعنى، محفورتان في وجهٍ جليدي بلا تعبيرٍ محدد، متسقتان مع صوته الرتيب ثابت الإيقاع، ضحكته، تبدو كصوت معدني سُجِّلَ بشكل متكرر على شريط وتسبب المخرج الفاشل في عرض الشريط في اللحظات غير الملائمة، يبدو في جلسته الثابتة كأنما قُيِّد إلى مقعده.

لا شيء يتحرك فيه سوى أصابعه التي تعبث بأزرار الحاسوب بسرعة خرافية، وعيناه اللتان تتحركان يمنة ويسرة كالبندول.

هكذا الحال في كل يوم حتى موعد النوم، لا أعرف تحديدًا ما الذي يفعله، لا بد أن مهامًّا شديدة الأهمية تحتاج إلى كل الوقت، كل الأيام، وكل العمر.

أنا لا أدَّعي أبدًا أنه يتجاهلني، ولا أنكر بالطبع أن له دورًا عظيمًا في حياتي، فهو الوحيد الذي بإمكانه تغيير أنبوب الغاز، والوحيد القادر على تبديل المصابيح المحترقة في ثريات البيت، الوحيد الذي بإمكانه اختيار نوع جيد من اللحم، فالقصاب عادة يحاول خداعي إذا ما قمت

بتلك المهمة، كما أن إصلاح السيارة والتعامل مع الحرفيين ليس من مهاراتي على الإطلاق والأهم من كل ذلك بالتأكيد هو التخلص اليومي من القمامة.

ربما أكون امرأة جاحدة إن أنكرت مجهوداته العظيمة في حياتي، لكن في الحقيقة تنقصني أشياءُ صغيرة.

ينقصني مثلًا أن ينظر إلى عيني فأشعر أنه يراني، فكثير من النظرات هي في حقيقتها عمياء.

ينقصني أن يمسك يدي فأشعر بالدفء، لا أعرف حقًّا لماذا تزيدني لمسته برودة، ينقصني أن تكون له أذنان، فأنا حقًّا لا أجدهما، ولا يمكنني الجزم إذا ما كان ذلك عيبًا خلقيًّا أم أنهما كانتا يومًا هناك ولسبب ما أصابهما الضمور حتى اختفتا تمامًا.

لطالما أطلت النظر إليه وسألته دون كلام: «لماذا تتركني وحيدة، بينما تتعانق أناملنا؟!».

لماذا تتركني أجري على الطريق، تسابقني أنفاسي إليك، بينما أنت جالس تنظر ولا تراني؟ كم هي طويلة تلك المسافة بين مقعدينا! كم هو بعيد صوتك، يأتيني صداه جافًّا باردًا بعد مسيرة ألف ميل، لماذا لا ترى الجدار بيننا؟!

لماذا لا تشتاق لحلوى الحب؟! ألست ظامِئًا لرشفة عشق؟!

على فرس من خيال، أقفز قفزات طويلة على أرضي، كهارب من الشيطان، أو كعاشق ملهوف للقاء.

أقطع الصحاري والقفار بحثًا عن قلب، وأنت هنا، هنا في الجوار.

لماذا لا تنظر إليَّ؟ لماذا لا تلقي إليَّ بحبل من هوى لأدع فرسي وأتشبث، وأصعد وإن كنت حتى في السماء السابعة!

فقط... انظر إليَّ، فقط، افتح لي باب عالمك، ولا تدعني وحيدة أكثر من ذلك، أنتظرك منذ قرون على حافة العمر، أنتظرك تاركةً كل شيء خلفي، لا شيء غيرك في حياتي والظلام، فهلا أتيت؟! لماذا لا تخبئني في مقلتيك؟! لماذا لا تغطيني وتُغنيني؟!

حاولت كثيرًا أن أقترب، وكالعادة، ينتهي بيننا الحوار إلى طريق مسدودة، أصمت ويصمت، ويشيح كلٌّ بوجهه، ولا يبقى شيء مسموع إلا دقات قلبي المتلاحقة.

ينهض من مقعده غاضبًا فتقوده قدماه إلى طريق تحفظها جيدًا، حجرة مكتبه اللعينة، ويرعد -ككل مرة- صفق الباب في سمائي، فأغلق عيني بقوة وأتنفس صبرًا طويلًا.. وأبقى أنا

وصمتي جالسين، وشريط حوارنا يلف عقلي كإعصار يبتلع أفكاري. كعصفور حبيس مجنون يطير بين جنبات القفص يدق القضبان الصلدة بمنقاره الصغير، يعض عليها ويدس رأسه بينها، يرفرف بلا توقف، يصرخ، يبكي، يدور، ويدور، ويدور، لا يعرف ما الذي أسكنه بين تلك القضبان التي تثيره وتحاصر عنقه فيختنق.

ورغم أن الباب مفتوح منذ عقود، فهو يلعن سجانه كل ليلة... ثم يخشى أن يطير!

لا شيء، وحدي أنا منذ البداية، وغدًا تأتي النهاية، دون أن أجِدَ الفرصة لأسألَ كثيرًا من الأسئلة الصعبة، أو أحكِيَ حكاياتي، أو تجد أحاسيسي متنفسًا لها، تكسرت كل الجسور التي تربطني بالعالم، تعودت الوحدة، تعودت الكتابة في دفتر مهماتي بلا وعد، تعودت حين تتيبس أطرافي من البرد أن ألجأ إلى المدفأة الكهربية.

قدرة الآخرين على فهمي صارت مستحيلة، فأنا لست تلك الزهرة البيضاء الشفافة، لقد تغيرت، لقد صرت مدينة، قلبي له ألف وجه، وعقلي به طرقات وعرة متشابكة، متاهات مستحيلة الفهم.

صرت مدينة، لا أعرف متى ولا كيف، لكنني صرت صعبة جدًّا، معقدة المشاعر والأفكار، يأتيني وحيٌ سريٌّ من عالم خفي، يطلعني على كل ما أخفاه الآخرون، لقد صرت أرى الجميع بسهولة بلا أقنعة، بلا حب، وبلا خطيئة أيضًا، أعرفهم جميعًا بسيماهم، وحدي أفهمها، ووحدي أبتسم حين أرى اللون الأسود.

لقد كنت يومًا زهرة هادئة، ومشكلتي الحقيقية الآن هي صخب المدينة.

لا بأس، ما هي إلا هلاوس أنثوية تافهة، أعلم رأيه في ذلك جيدًا.

كما أني لا أحب الحديث عما ينقصني، فأنا لست من ذلك النوع من النساء اللاتي يندبن حظوظهن طوال الوقت ويتشدقن بما ينقصهن، وما الذي ينقص امرأة لا ينفد لديها أبدًا أنبوب الغاز؟!

على كل حال لا بد أن تلك الخواطر السيئة سببها أني لم أنَم بالأمس جيدًا، الكثير من القهوة يفسد كل شيء.

كما أنه لا مفر من العمل والنوم.

أطفأت المصباح ودسست رأسي في الوسادة ونسيت كل شيء، أو حاولت أن أنسى.

وفي الصباح، ارتديت ملابسي ببطء كإنسان آلي، ورحت أرتشف القهوة وأنا أنظر إلى النافذة الموصدة، وما الفارق إن فتحتها؟ ما الذي أنتظر أن أراه ويستحق؟!

انتهيت من إفطاري وانطلقت إلى عملي، فكنت على مقعدي لحضور الاجتماع الصباحي في الموعد المحدد، عيناي مثبتتان إلى مقعد الرئيس بانتظار حضوره، لكن ثمة سحابة ضبابية تحلق في سماء حجرة الاجتماعات، دخل الرئيس أخيرًا في مجال رؤيتي حين جلس على كرسيه، وبدأ يتكلم بلا صوت.

لأول مرة ألحظ أن الرئيس ليس له شفتان، مجرد خطين رفيعين باهتين يحوطان شَقَّيْ وجهه، تُرى هل الرئيس مصاب بفقر الدم؟ ربما منعته مسؤولياته الثقيلة وكثرة انشغاله من العناية بصحته، إذا واتتني الفرصة فلن أتردَّدَ في لفت انتباهه للون شفتيه الباهت، ما فائدة أي شيء إذا لم يهتم الإنسان بصحته؟! حتى أسنانه، ينبئ لونها الأصفر عن كثرة شربه للمنبهات، إنها عادة سيئة في الحقيقة وتؤدي حتمًا في النهاية إلى...

إحم إحم لم أنتبه لسؤالك سيدي، هل تفضلت بإعادته؟

قلتها وألسنة اللهب تتصاعد من وجنتي خجلًا.

دق طاولة الاجتماع بغضب قائلًا: «كعادتك تجلسين معنا وعقلك في عالم آخر».

ابتلعت لساني وعجزت عن الرد أو التبرير، لكنه كان ينظر إليَّ محدقًا إلى وجهي بصرامة طيلة الاجتماع، كيف أنتبه إذًا حين يوجه حديثه إليَّ؟

ربما عيناه الضيقتان الحادتان هما السبب، فلون حدقته الرمادي المائل للاخضرار يحيط نظراته دومًا بالغموض، لا أذكر أنني يوما نظرت إلى عينيه فشعرت بالأمان، دائما أستشعر أن ثمة أشياءَ تختفي وراء نظراته، وكأن لعينيه وجهين، وجهًا معلنًا ووجهًا سريًّا، وكأن لصوته قدرة على تنويمك مغناطيسيًّا ودفعك إلى تنفيذ كل أوامره دون إرادة، ليس من السهل أبدًا أن تتماسَكَ في حضرة ذلك الرجل الساحر، يبدو كما لو...

إحم إحم يبدو أن الاجتماع قد انتهى، سخيف ذلك الاجتماع الصباحي.

حملت أوراقي بهدوء إلى حجرة مكتبي، متجاهلة نظرات زملائي الغريبة، لا أعرف لماذا ألْمَح في عيونهم دومًا شيئًا من الإشفاق، هذا شيء غير قابل للتفسير أبدًا، لكن ربما السبب هو كسر

إبهامي الأيسر واضطراري إلى ارتداء تلك الجبيرة منذ أكثر من شهر، نعم، لا بد أن ذلك هو السبب، وإلا فماذا بي يدعو إلى الرثاء؟ يا لهم من حمقى مغفلين، جميعهم مغفلون.

7 مكالمات فائتة من العضم.

يبدو أن الأمر خطير، تُرى هل عاد العضم إلى الحياة؟

- مرحبًا، هل هناك كارثة؟

- نعم، استيقظت من النوم فوجدت الإنترنت مفصول.

- هذا يفسر اتصالك بي سبع مرات، في الحقيقة ليس لدي تفسير لذلك، وعليَّ أن أواصِلَ العمل، معذرة، ألو...

يبدو أن العضم أغلق الخط دونما مقدمات، ولماذا يضيع ثانية في قول وداعًا.

لا بأس، فأنا أيضًا مشغولة ولديَّ الكثير لإنجازه في عملي، ثم في دفتر مهماتي، بدقة شديدة كعادتي، ليس لديَّ وقتٌ للضيق من تلك التفاهات، كما أن أمي لا بد كانت على حق، وعليَّ أن أسيرَ على نهجها، وما دام أن الأنبوب مليءٌ بالغاز، فكل شيء على ما يرام.

دمية بلا عينين

جرس الفسحة.. ذلك الجرس النحاسي الضخم المعلق في حامل معدني في فناء المدرسة، تحوطه آثار صدأ أخضر تتدلى منه سلسلة غليظة تنتهي بمقبض، كان منتهى أحلامي أن يُسمَحَ لي يومًا بجذب مقبضه وإنتاج الرنين، أحلام الطفولة دائمًا بسيطة جدًّا، ورغم ذلك لا تتحقق أبدًا، ربما هو تدريب مبكر للإنسان من الحياة أن يتعود الحرمان، حرمان صغير يعقبه حرمان كبير، ثم نعتاد كل شيء.

وفي كل ظهيرة يرن الجرس فنهرع جميعًا إلى فناء المدرسة، صديقتي شعرها طويل، تغزله أمها في ضفائر جميلة تنتهي بشرائط بيضاء، أما أنا فشعري قصير تقصه لي أمي كشعر الفتيان، فلا وقت لدى أمي لغزل الضفائر، لكن ذلك ليس مهمًّا على كل حال، هكذا تقول أمي.

وفي كل فسحة تحمل صديقتي في يدها دمية، وأحمل أنا فضولي، أرمق دميتها الجميلة في حذر، أتحسس شعرها الناعم ووجهها الصغير وملمس فستانها المنفوش الشفاف، أكتم شهقة انبهاري حين تميلها صديقتي فتغمض عينيها ثم تعود تحملها واقفة فتفتحهما ثانية، تمسك صديقتي بصحن صغير وملعقة وتطعم دميتها طعامًا وهميًّا وهي تغني لها.

كان امتلاك دمية حلمًا بعيدًا، بالضبط كامتلاك ضفائر طويلة، لم أجرؤْ يومًا على التصريح به، فحين يتصور الآخر أنك على قدر المسؤولية يصبح التعبير عن احتياجات طفولتك أمرًا محرجًا.

صديقتي تتدلل وتبكي وتدق الأرض بقدميها فيرتمي تحتهما كل ما تطلبه، بينما أدس أنا أمنياتي في طيات أحلامي حين أتدثر في فراشي كل ليلة، وحين تشرق الشمس أنساها، أو ربما أتناساها، وأجري لألحَقَ بطابور الصباح يلاحقني صوت أمي الذي لا يمل لومي.

مرت الأيام وصديقتي تبدل الدمى وتبدل لها فساتينها وحقائبها، وتبهرني كل فترة بسحر الألعاب، بينما طفولتي أنا تنضج بسرعة في تنور الجدية، وتغطي مرارتها على طعم السكاكر، فيستحيل خيالي الغض أكثر صلابة وحذرًا، وتشغلني هموم بيتنا الصغير عن التفكير في اللعب، حتى مللت الدمى وما عادت تشغلني.

ذلك الربيع بدوت مختلفة، نظرت إليَّ أمي نظرة طويلة، مررت يدها على شعري الذي استطال للمرة الأولى وجدلتُه بنفسي في ضفيرة متقنة أضعها بعناية على كتفي وأداعبها كل حين لأتأكد أن ثمة ضفائرَ أخيرًا لي، مرَّرَتْ أمي يدها على خدي الذي تشرب بحمرة الخجل، تفحصتْ تفاصيلي بعينيها، ابتسمتْ بلا حنان، ولم تعقب، تأكدتُ وقتها أني لم أعد طفلة.

زارتني صديقتي بعد غياب طويل ومعها كالعادة دمية جديدة، نظرتُ إلى دميتها بلا مبالاة، رفعتُ رأسي في كبرياء ثم تجاهلتها. مرت بذاكرتي صور كل الدمى والفساتين وعيونها التي تغمض وتفتح، وعيوني أنا التي كانت حبلى دومًا بانبهاري القديم، فضحكتُ بقسوة كضحكة أمي.

نادتني أمي: «لا وقت لدينا للعب، هيا نصنع الخبز».

الوقت ضيق دائمًا في بيتنا الصغير، جريت نحوها وصديقتي تراقبني بفضول وضفائرنا تسابقنا، جمعتُ بسرعة أعواد القش ورتبتها في حزمة عقدتُها بِعُودٍ منها كفراشة كبيرة، كتلك التي تضعها صديقتي في نهاية ضفائرها، رميتها في فم التنور الطيني الجائع، حاولت صديقتي تقليدي، لكنها ليست ماهرة، كما أنه من الصعب أن تصنع حزمة قش بينما أنت مشغول بدمية، تصنعتْ صديقتي الملل وعادت تغني لدميتها، بينما رحت أرتب أنا حزمات القش وأصوبها بمهارة -كأمي- في فم التنور.

كانت حرارته تلفح وجهي فأقاومها وأتصنع الاحتمال، مرهق أن تحاول طيلة الوقت التظاهر بأنك صلبٌ كالكبار بينما عيناك معلقتان بأقرانك على مد البصر وهم يملؤون الكون ضجيجًا وحياة.

حملت أمي السيخ الحديدي الطويل، مدته إلى حيث ألقيت حزماتي، قلبتْها بحنكة فتصاعدت ألسنة اللهب ورائحة الحرق. شعرتُ بالفخر بنفسي، أنا التي فعلتها.

تربعت أمي على الأرض وبدأت بفرد العجين بالأُسطوانة الخشبية لتشكِّلَه دوائر متشابهة الحجم.

اختلستُ من الطست النحاسي الكبير قبضة عجين على حين غفلة منها، وانزويت في الركن بجوار صديقتي، رحت أغرز أصابعي في العجين وأستمتع بملمسه اللين ومطاوعته لضغطة يدي، مدت صديقتي أصابعها لتشارِكَني اللعب ونحن نكتم ضحكاتنا معًا، ثم خطرت لي فكرة.

أزحت فتافيت القش وبقايا أوراق الشجر المتناثرة عن بقعة صغيرة من الأرض الطينية الجافة، وضعت قبضة العجين عليها وبدأت العمل.

شكلت خمس أسطوانات، واحدة سميكة والباقون أرفع، ثم لففت العجينة على كفي بسرعة ومهارة كما تصنع أمي قرص الخبز، فصنعتُ كرة صغيرة، ثم غرزت إصبعي فيها لأرسم ثلاث حفر دقيقة، ألصقت الأجزاء ببعضها فخلقتُ دميةً صغيرة، وَسَّعَتْ صديقتي عينيها في انبهار وصفقتْ جزلًا، فأشرت إليها خائفة أن تسكت، وهمستُ لها في حيرة: «لكنها بلا عينين تفتحهما وتغمضهما كدميتك». مدت صديقتي ملعقتها الصغيرة إلى فم دميتي.

صاحت أمي: «هيا، المزيد من حزم القش».

أطبقت أصابعي على دميتي خائفة فعادت كتلة شائهة لا حياة فيها، وضعت صديقتي يدها على فمها لتكتم صرخة، دفنتُها بسرعة بين حبيبات الطين وأعواد القش، ودفنت معها ضحكاتي، عقدت صديقتي حاجبيها واحتضنت دميتها بحنان وكأنها تُطمئنها، تحسستُ ضفائري، وجريت بسرعة نحو أمي لأُطعم التنور.

«يُرجى ربط الأحزمة».

أوقف نداء الطيار شلال الذكريات فجأة، سكنت الأصوات برأسي، تحسست ضفيرتي البيضاء في حركة لا إرادية، ثم كتمت ضحكتي كعادتي، وَعُدْتُ لمراقبة السحب من شباك الطائرة.

«عشرون عامًا التهمتهم الغربة؛ كان ذلك هو الثمن الذي دفعته لأمنح ولدي كل ما حُرمته أنا».

ولدي الحبيب، أوحشني كثيرًا، لطالما كانت علاقتنا مختلفة، لا تشبه أي علاقة مماثلة.. لم أره يومًا طفلًا عابثًا ينتظر مني أن أنهره، لم أره قط تابعًا ضعيفًا جاهلًا ينتظر مني أن أقوده...

بل هو الحبيب والقائد والمعلم، تعلمت منه أشياءَ كثيرة، رأيتها في فطرته النقية وسريرته البيضاء، رأيتها في حنانه وعينيه المتوقدتين، علمني الحكمة صغيري قبل أن أعلِّمَه إياها، بل علمني الحياة.

ربما تكون الحياة قد غيرتني وغيرته كما يتغير كل شيء، لكن تظل عيناه ملهمتي وسر ابتسامتي.

«مطار القاهرة الدولي»، ووطأت قدماي الأرض المقدسة، بدت لي الشمس غير الشمس، هنا الحياة.

سرت بصعوبة، «هل تقدم العمر بي فما عدت أحتمل مشقة السفر؟!».

«استلام الحقائب»، الصداع يكتنف رأسي وعظامي تئن. «أرجو ألا يُفسِدَ ذلك التعب مفاجأة عودتي» قادتني قدماي إلى عيادة المطار.

كثير من الضوضاء، كثير من الزحام، قليل من فرحة الوصول.

بعد الكشف والانتظار، علا صوتٌ خشنٌ: «التحليل إيجابي».

صرختُ مذهولة: «مستحيل، طُعِّمْتُ والتزمت دائمًا بإجراءات السلامة».

«لا فائدة من الجدال، تحتاجين إلى رعاية خاصة، يمكنك الانتظارُ حتى يأتِيَ أحد أفراد عائلتك لاستلامك».

تدفقت رعشاتُ صوتي عبر الهاتف: «حبيبي، أنا أمك، هنا بمطار القاهرة، أردتها مفاجأة لك، لكن يبدو أنني قد أُصبت بالفيروس اللعين، متعبة للغاية، والدُّوار يكتنف رأسي، أنتظرك بعيادة المطار، لا تتأخر أرجوك».

أنهيت الاتصال، ووضعتُ رأسي على ظهر المقعد، وغبتُ عن العالم.

«سيدتي، العاشرة مساءً، ألن يأتِيَ ولدك؟».

رفعت رأسي في دهشة، نظرتُ إلى الهاتف، لم يتصل، حاولت الاتصال به، الهاتف مغلق، لا بد أن مكروهًا أصابه، الطريق إلى المطار دائمًا تتسابق عليها السيارات، الكل يلهث خلف موعد طائرته.

سرى القلق في عروقي حتى ارتعدت أصابعي: «هل أكون السبب في إيذاء ولدي؟»، الفكرة تنسحب على عقلي فأكاد أُجَن.

تحاملتُ على نفسي مستندة إلى حقيبتي حتى خرجت من بوابة المطار، أشرتُ إلى سيارة أجرة: «أريد الذهاب إلى المقطم يا حاج، لكني مصابة بالفيروس»، قلتها بصوت خفيض متردد.

ضحك السائق العجوز: «هل تصدقين حكاية الفيروس، اركبي يا حاجَّة».

«ليت الإنكار ممكن» أسندت ظهري إلى المقعد وانطلقتْ عيناي عبر الشباك تنهل من صور الطريق عَلَّها تروي عطش الغربة.

كانت الطريق أطول من عمري الضائع، والمشاهد غريبة لا تثير حنيني، كان شعوري بالوَحدة مهيمنًا على أي شعور آخر، صوت مروق السيارات المتعجلة حولنا على الطريق السريعة في سكون الليل يختلط بصوت أمي وهي تناديني وتطالبني بالمزيد من حزمات القش.

الظلام وأضواء السيارات، أعمدة الإنارة ذات الضوء الباهت التي حملت كلها عيني أمي، كانت تجري بسرعة جنونية في الاتجاه المعاكس لتراقب حيرتي في سخرية.

عشرات الأفكار المخيفة تعترك في عقلي، يعلو صوت بعضها في عالم سكوتي، ثم يخمد مرهقًا ليعلُوَ صوت جديد، ولدي الوحيد، أين هو الآن؟ المرض اللعين، هل هي المحطة الأخيرة؟ سنوات الغربة.. ثم تنتهي الحكاية بالموت؟! كانت حرارة التنور الجائع تلفح وجهي فلا أشعر بهواء الليل البارد، صوت صديقتي وهي تغني لدميتها، جرس الفسحة، كنت أدور بلا توقف بين مئات الصور.

صرير عجلات السيارة على الأسفلت، تفضلي يا حاجَّة، وصلنا.

أنزَلَني السائق وحقيبتي عند بوابة الحلم، الميدان القديم، عمارتنا الشامخة، المحال الصغيرة، الشجرة العجوز، ما زال كل شيء على حاله، هنا الحياة.

تحركت بصعوبة باتجاه البوابة، ضغطتُ زر الجرس مرارًا بلهفة طفل؛ لطمني صوتُه: «ارحلي يا أمي». تحسستُ أذني كمن أصابته لوثة، «ارحلي يا أمي وخذي معك رفيقك عزرائيل، زوجتي حامل والأمر لا يحتمل»، صفعة الإغلاق.

صوت أمي يناديني: «المزيد من القش»، دققت الباب بقبضتي الهزيلة، افتح يا ولدي، افتح أرجوك، لا أقوى على الوقوف، ما الذي دهاك؟ افتح يا ولدي، ولا مجيب. صوت صديقتي وهي تغني لدميتها.

لفَّني الدوار وبدأت قطرات العرق تسيل على خدي. «السكر ينخفض، لم أتناول شيئًا على الطائرة».

سقطتُ أرضًا، وانتثرت محتوياتُ الحقيبة، الهدايا الثمينة، «كيف تفقد الأشياء فجأة قيمتها وتصبح بلا معنى؟».

التقطت الدمية الصغيرة التي ابتعتها خِصِّيصَى لحفيدتي القادمة، تحسست شعرها الطويل، كانت تفتح عينيها وتغمضهما، ارتعدت يدي فسقطتْ.

تجاهلتُ أحلامي المبعثرة، زحفتُ بصعوبة باحثة عن منقذ، لمحتُ ظلالًا قادمة، رفعتُ ذراعي أستغيث ووعيي يتناقص، أسرعتِ الخطى نحوي: «الغوث، لكن احذروا العدوى»، توقَّفَتِ الأقدام فجأة كسياراتٍ متهورةٍ أوشكتْ على الاصطدام، استداروا وجرَوْا جميعًا بالاتجاه المعاكس.

العالم ينزع قناعه، الوعود تذهب مع الريح، تلك الصور المهزوزة الباهتة أمام عيني هي حقيقة الحياة، الخوف يتسرب من شراييني، يملؤني حتى الحافة، غريق يأتيه الطوفان من داخله... أين المفر وقد فَرَّ مني الكل، حاولتُ أن أبكِيَ، فعجزتُ عن فغر فِمِّ البكاء، غرقتْ صرخاتي داخلي وحيدة كما وُلدت وحيدة.

أين تلك المساحة الواسعة بين طريقَيِ الخير والشر التي توهمتها سابقًا؟! أرى الآن الطريقين متقاطعتين في نقاط كثيرة، نعبر منها جميعًا في لحظات ما في حيواتنا دون أن نفكِّرَ كثيرًا، على أي طريق منهما نحن! تقودنا أهواؤنا ومصالحنا فقط، تدعمها تبريرات شيطانية كثيرة، لنمضِيَ بضمائر مرتاحة وثقة مطلقة أننا حقًّا أناسٌ صالحون!

الآن في مكان ما من العالم تصدر ضحكة، أكاد أسمعها، تبدو لي ساذجة، غدًا يغزو ذلك الفيروس حلوقكم فتُغلق في وجوهكم الأبواب، حين يُطل الموت برأسه، قد يصبح الكل خونة.

سقط رأسي الثقيل بين محتويات الحقيبة، فتحَت الدمية عينيها، لفحتني حرارة التنور، علا الصوت من جديد في أذني : «يُرجى ربط الأحزمة».

قمامة فاخرة

الريح تقصف في شراسة، تجرف في طريقها أوراق الشجر الجافة والمهملات المتناثرة على جانبي الطريق، يكاد البرد أن ينخر عظامي، يفتُّ التعب في أجزائي، يدق ذاك الألم اللعين في رأسي كدقات ثقيلة على لوح زجاجي سميك تسري قوتها به كسرطان ينتشر بسرعة البرق، خيوط تمتد وتتقاطع في كل الاتجاهات بعشوائية، حتى يستحِيلَ اللوح فتافيت، ولكن كل فتفوتة في موقعها صامدة، لا تسقط ولا تتناثر، إنها تموت في صمت كحارس مخلص على الحدود، تلقى رصاصة غادرة، فقرر أن يموت مستندًا إلى الجدار، سلاحه على كتفه، ميت برتبة بطل..

تمددت على الأرض عاجزًا عن الكلام أو الحركة، يؤلمني الضوء والصوت وتبدو لي القدرة على ممارسة الحياة معجزة.

نسيت كل شيء وصارت الحياة شيئًا واحدًا، أن تَكُفَّ الطرقات عن رأسي.

حركت جسدي ببطء محاولًا النهوض بحذر، وكأن الوحش الرابض برأسي يحاول النوم وقد تتسبب محاولة العودة للحياة في إيقاظه.

لملمت ثيابي الخفيفة حول جسدي المتخشب، ولففت جيدًا حول رقبتي كوفيتي الصوفية، ومضيت في الشارع المظلم الذي خلا من المارة في ذلك الوقت من الليل.

كان جسدي كله يرتعد، أكاد أصرخ كلما لمست قدمي الأرض، حاولت أن أستند إلى جدران البيوت الصامتة التي تلقي بظلالها السوداء على طريقي، لكن الجدر كان باردًا كالثلج، لم تطق أصابعي المتيبسة لمسه، حين تقع بين براثن الجوع والبرد في آن، ما أصعب الحياة.

لمحت من بعيد مجموعة من أكياس القمامة الملقاة في ظل صندوق معدني قديم، اتسعت عيناي في أمل أن أجد عشاءً يدفئني في تلك الليلة البائسة، اتكأت بركبتي السليمة على الأرض وبدأت أفتش عن لقمة ناجية من البطون النهمة، لكن القمامة كانت جافة للغاية، لا شيء بالمرة يصلح للأكل، وكأنها بقايا قوم لا يقلون عني جوعًا، ألقيت بالكيس الأخير في يأس، وتحاملت على نفسي، فقررت أن أمد المسير نحو الحي البعيد، ذلك الذي تحوطه الفيلات وشجيرات الورد، سأجد في صناديقهم بالتأكيد قمامة فاخرة.

ازدردت لعابي وأنا أتخيل بواقي اللحم العالقة بالعظام، والكثير من بواقي الخبز الطري وربما الحلوى أيضًا، واستمرَرْت بالمسير، مَرَّ وقت طويل وأنا ما زلت أمشي، ولم تلُح لي قط تلك الأضواء الملونة التي تحيط الحي الراقي عادة في الليالي المظلمة، ربما ضللت الطريق.

لم تعد بي طاقة للمزيد من السير، ربت على بطني الضامر وأعدت لف الكوفية حول عنقي، وارتميت على الأرض منهكًا.

صَكَّ سمعي صوتُ ارتطام زهر الطاولة بالخشب وبعض الصيحات الشبابية، يبدو أن ثمة مقهًى هنا في الحي، نهضت بصعوبة وعاودت المسير محاولًا استكشاف المكان.

غمرت عيني أضواءُ المقهى، اخترت بقعة هادئة في الجوار، ارتميت على الأرض مسندًا ظهري إلى جدار خشبي، كان البرد أصعب من أن يتحمله ظهري، ولم أكن أقوى على صلبه على كل حال.

كان المكان مكتظًّا بوجوه متعبة، عيون ناضحة بالقلق، كوفيات صوفية مرخاة حول أعناق ضجرة، رائحة دخان السجائر المحلية الخانقة، سعال المدخنين الذي لا ينقطع، ابتسامات لزجة، كان ضوء التلفاز يومض من بعيد، وحديث ما يدور عن السيد الرئيس، ودعوات لتجديد الولاء له ليستمر بالعمل من أجل الوطن، لم أتحقق بالضبط من اسم الرئيس، ولا اسم الدولة المعنية، فربما كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها التلفاز منذ وقت طويل، وما الفائدة؟

تعاقبت على الشاشة الفضية صور كثيرة لبنايات ضخمة شديدة الفخامة وأعمدة عملاقة وشوارع واسعة مرصوفة نظيفة للغاية محاطة بمساحات كبيرة من الحدائق على الجانبين.

ترى أين هذه الأشياء، هل هي في بلادنا أم في بلاد أخرى؟ فأنا لا أعرف سوى شكل البنايات القديمة والحارات الضيقة المتربة أرضها بلا استواء، وذلك الحي الذى مضى عمري به ثقيلًا بطيئًا أسودَ.

لا أعرف سوى الجدران التي تسري فيها شقوق الزمن وتغطيها الأتربة فتخفي تمامًا لون البناء الأصلي، إن كان يومًا ذا لون، لا أعرف من حدائق الزهور غير زهور البرسيم البنفسجية، صورها المهزوزة في ذاكرتي المتعبة هي بعض مما تبقى من ذكريات الطفولة في قريتي الصغيرة بأعماق الجنوب.

كل المدائن تبدو جميلة، إذا التُقِطَت الصورة في التوقيت الصحيح من الزاوية الصحيحة، أما الحقيقة فتجدها فقط في تلك الزوايا المقصوصة ببراعة من أطراف المشهد، تلك الزوايا التي

ارتسمت بها قلوب جائعة تربط على بطونها رفات أحلامها.

في الشوارع التي أعرفها، ما زالت نفس الوجوه المكدودة العابسة تسعى تحت لفح الشمس كآلات بلا روح، غابت عنها الابتسامة وحفر العبوس أخاديده على الخدين والجبهة، ووشت الأيادي الجافة الباردة بأسرار كثيرة، وما زالت الأبراج الشاهقة تحجب ضوء الشمس عن البيوت المتهالكة في الحارات الضيقة.

وما زال اللون الأخضر يختار أين ينمو في كبرياء، بينما اللون الترابي يفرض وجوده ويشيح بصولجان القهر لنفس الوجوه.

ما زال العدل كلمات، مجرد كلمات في روايات قديمة.

تعالت الصيحات على القهوة حين بدأ الشباب المتحمس يعلن رفضه لاستمرار السيد الرئيس، وبدؤوا يرددون كلمات مثل: «تداول السلطة»، «الحرية»، «التغيير» وغيرها من الكلمات المماثلة.

ضحكت كثيرًا، فقد أعادوا لي ذكريات الدراسة، حماس الشباب لتغيير العالم، سلمى، يااااه، عينيها البنيتين الواسعتين، بشرتها البيضاء المخضبة بالحمرة، تعانُق كفينا، أحلامنا معًا، ثورة القراطيس التي طالما قمنا بها معًا، كلما تناقلَتْ وكالاتُ الأنباء خبرَ فاجعةٍ إنسانيةٍ جديدة انهمرَتْ فيها الدماء والدموع، ثُرنا فورًا ثورتنا العظيمة، فارتدَينا الأنوفَ الحمراءَ المدوَّرة والقراطيسَ الملونة وشرَعنا في بثِّ سخريتِنا من اللعنةِ الجديدة على منصات التواصل الاجتماعي، تتعالى الضحكاتُ مختلطةً بصراخِ وعويلِ الذين غُمست أيديهم في النار، بينما يتشاغل بعضُنا باستعراضِ عبقرياتِه التحليليةِ للأحداث، والاستهزاءِ بكلِّ ما لا يستسيغه عقله الصدئ، شيئًا فشيئًا تخفت ضجةُ الضحكِ والبكاء ويسود الهدوء، ويطمئن كلُّ مجرمٍ أنه في أمان، يرفع الفاسدون أقداحَ النصرِ، بينما ينام الضحايا مُخدَّرين بالمُر.

لا شك أني كنت أحمق، ولكنني على الأقل كنت إنسانًا، أما الآن فقد صار العكس واقعًا، علمتني الحياة ولكن الفقر والتهميش أفقداني إنسانيتي.

يومًا ما كانت أحلامي تحدوني نحو القمة، ولم أتصور قط أن تُقطَع ذراعي اليمنى في تلك الماكينة اللعينة لأسقط نحو القاع، وينتهي بي الحال إلى شحاذ متجول لا يجد من يعوله، بل أصبح فجأة «لا أحد».

ولماذا يهتم اللا أحد بانتخابات الرؤساء؟ ولماذا أتكلم إذا لم تكن ثمة أُذُن؟ أعلم أني سأموت كمدًا على أعتاب مدينة الصم، أصرخ فتتيه صرخاتي في الفضاء، أطبل على صفيح غضبي

بمطرقة الجنون محْدِثًا ضوضاء شيطانية عالية، لكن أحدًا لن يلاحِظَها في النهاية.

كساقط يمكنني القولُ أن السقوط قادمٌ لا محالة في زمن التيه... حين يختلط الخوف باليأس والظلم، حين تكتشف فجأة أن العالم حولك لا يختلف كثيرًا عما نراه في برامج عالم الحيوان، بل ربما أبشع، فالحيوان يريق الدم فقط، أما البشر فهم ماهرون في إراقة الكرامة، المشاعر، الشرف والإنسانية نفسها... يسيلونها جميعًا بدم بارد على أرض المصالح والتملك والأنانية، أما الحيوانات، فيتشاركون الفريسة بكل عدالة وكرم.

متى آخر مرة شعرتُ فيها بالراحة والاكتفاء؟ متى آخر مرة شعرت أن كيانًا ما يشعر نحوي بالمسؤولية؟ يااه، أظن ذلك عندما كنت جنينًا في رحم أمي، هنالك في الظلام، في ذلك المكان الضيق لم أكن وحيدًا، دقات قلب مخلص كانت تؤنسني... تأتيني من بعيد عبر الجدر والحواجز، لكنها كانت تصلني قوية صادقة، يدق قلبي معها، دقة دقة، إن أسرعتْ لحقها قلبي، وإن تباطأت تمهل، شريان ما كان يربطنا معًا يحمل لي حبًّا صادقًا، لم أكن قط أخاف، كنت متشبِّثًا بالحبل، ولكن، كان شرط خروجي للحياة.. أن ينقطع.

لا أعرف ما الذي عرج بي على تلك الذكريات والأفكار البائسة، يبدو أنها هلاوس الجوع لا أكثر.

قررت النهوض ومعاودة السير نحو الحي البعيد، انبعثت من التلفاز موسيقى حماسية متزامنة مع عرض جديد لمزيد من الصور الرائعة، انطلقت صيحات من القهوة تؤيد الرئيس مختلطة بصيحات غاضبة معارضة، وددت لو أرفع ذراعي السليمة لأهتف معهم، لكني كنت ممسكًا بقوة ببطني الذي يتقلص من شدة الجوع، استندت إلى الجدار ونهضت بصعوبة، وعاودت المسير، نسيت التلفاز وكل الصور حين بدأ المطر بالهطول فارتجفت أجزائي، مددت الخطى قدر طاقتي، وابتلعني سريعًا ظلام الطريق.

جدران

اهتزت جدران الشقة فجأة على صوت سقوط مُدوٍّ، قفزت من فراشي في الظلام، تحسست طريقي حتى أضأتُ مصباح الحجرة، وجدتُ أنَّ مكتبتي الكبيرة التي تحوي مئات الكتب والملفات الورقية قد سقطتْ أرضًا، واختلطتْ أوراقي ومُقتنياتي كلها.

كان مشهدًا صادمًا، أُرتِج عليَّ للحظات، ووقفتُ أدلك رأسي الكبير، وأعدل نظارتي العظمية على أنفي الضخم، مرَّرتُ عيني على مشهد أكوام الأوراق والكتب المختلطة.

عليَّ أنْ أعيد ترتيب كل شيء بنفسي رغم إرهاقي الشديد، لا مفر.

شمرتُ عن ساعدي، ثم شرعتُ في العمل.

كانت المكتبة ثقيلة للغاية، لكنني اضطُررتُ إلى رفعها من الأرض وحدي، فلا أحد يساعدني هنا.

بدأتُ بترتيب الأوراق المتناثرة، ورقة ورقة، أتعَرَّف على محتوى الورقة، ثم أُصنِّفُها، جمعتُ أكوامًا كثيرة من الأوراق، ثم بدأتُ بحفظ كل مجموعة في ملف، مرتْ ساعات طويلة وأنا أُنجز تلك المهمة الشاقة، حتى بلغ بي العطش والجوع مبلغهما، وأصابني إرهاق شديد ودوار، لكنني كنت مضطرًّا إلى إتمام المَهمة.

انتهيتُ أخيرًا من ترتيب ذلك الكم الهائل من الأوراق! الآن سأنظم الكتب.

نجيب، نجيييييب.

استيقظتُ فَزِعًا على صوت نداء أمي، نظرتُ حولي في ذهول، فوجدتُ نفسي في الفراش.

استشطتُ غضبًا، نهضتُ من فراشي كعاصفةٍ وخرجتُ إلى الردهة، وددتُ لو أن بيدي أي شيء أكسره.

كل ذلك التعب والتركيز ذهب هباءً في حلم؟!

كدت أُجَن.

- ما بك يا ولدي؟

- لا شيء، مجرد حلم!

تنهدتْ في ارتياح، ربَّتت على كتفي بحنان.

- متى أطمئن عليك يا ولدي؟

- وهل تطمئن الأم أبدًا؟!

رددتُ بسخافة غير مقصودة، ثم توجهتُ إلى حجرتي بلا استئذان، صفقتُ الباب بنفاد صبر، شعرتُ برأسي يكاد ينفجر، كانت الساعة السادسة صباحًا، رحت أتأمل مكتبتي الضخمة المنسقة بعناية فائقة، تنهدت في ضيق محاولًا نسيان ما حدث، ثم قررتُ معاودة النوم لنصف ساعة إضافية.

غرقتُ في النوم سريعًا من فرط إرهاقي الذهني، حتى اخترق أذني صراخ تلك الجارة، هببتُ مذعورًا، هُرعتُ مع أمي إلى الشقة المقابلة، طرقنا الباب، ففتحتْ لنا الجارة وهي تبكي وتنتحب.

- ماذا حدث؟!

- ضاعت ورقة ملكية البيت، لا بُدَّ أنَّ ذلك النصاب سرقها، إنه ينكر البيع الآن، ضاع تعب العمر كله، سنبيت في الشارع.

ردَّت الجارة وهي تصرخ وتولول.

- اهدئي قليلًا، سنبحث عنها مرةً أخرى، لعلها هنا أو هناك.

اصطحبتنا الجارة إلى حجرة واسعة بها خزانة أوراق عملاقة، هالني منظرها، «كانت هنا، كانت مطوية بين صفحات كتاب، لكنها ضاعت» وعادت الجارة للنحيب والبكاء وفورًا، قرر ثلاثتنا إعادة رحلة البحث المريعة عن الورقة الضائعة كنت أفتش بنصف عين، بينما سقط جفني المرهق تمامًا على العين الأخرى، فعلتُ المستحيل للإبقاء على ذلك النصف مفتوحًا، وأنا أفتش بين مئات الأوراق في خزانة تلك المرأة الغريبة.

كانت الخزانة تحوي أكوامًا من الأوراق الملخبطة، منها شهادات دراسية قديمة لطالب في مختلف المراحل الدراسية، ونسخ من خطابات رسمية موجهة إلى عديد من الجهات الحكومية التي ربما اختفى بعضها الآن أو تغيرت مسمياتها، وخطابات أخرى شخصية، تبدو من طفل لا يَزيد عمره على الثامنة لوالده، وأوراق بها قِطَع تبدو إملائية لطفل متعثِّر في تعلم الكتابة، البعض يصر على الاحتفاظ بأشياء ساذجة على سبيل الذكرى، ثم يضطر إلى التفتيش بين كل

ذلك حين يفقد ورقة. وما تلك؟ تبدو فواتير شرائية عمر بعضها أكثر من ثلاثين عامًا، ترى هل يطول التردد في الاحتفاظ بسلعة كل تلك السنوات؟ كتمت ضحكة كادت تفلت مني، وهنا فواتير كهرباء ومياه من نفس العمر تقريبًا، ووصْفات طبخ، وأوراق تبدو مقتطعة من دفاتر مذكرات قديمة، ومسودات لمحاولات فاشلة لكتابة شعر، وأوراق تذكيرية بمهام عاجلة، وصفحات مقتطعة من بعض الصحف والمجلات، ووصفات علاجية من الطب الشعبي، وخواطر مبعثرة، وصور ممثلات مقصوصة من جرائد قديمة، ورسومات فنية لهاوٍ، ورسومات هندسية لمبانٍ، وحسابات ميزانيات منزلية، وقوائم بأسعار مطاعم مختلفة، وإعلانات عن أماكن ترفيهية، وعروض تجارية مختلفة والكثير من الشخبطة الغامضة، وغيرها كثير من الأوراق التي ترقد عادةً في سلام، في سلات المهملات.

- هل وجدتِ شيئًا يا أمي؟

- لا، ولا يبدو أنني سأجد.

دَارَ رأسي بقوة من فرط الإجهاد، فوقع من يدي الملف، وسقطتُ على الأرض.

وجدتُ يدًا حانية تربتُ على خدي برفق وتنثر قطرات من المياه على وجهي، فتحتُ عيني، فوجدتُني ملقًى على الأرض بجوار فراشي.

صرختُ من القهر.

- إنه حلم مرةً ثانية!

واحتقن رأسي من التنقيب بين مئات الأوراق هباءً للمرة الثانية!

أمسكتُ برأسي المتعب، ورحتُ أدقُّه على ركبتي وأصرخ كمجنون.

صرخت أمي ملتاعة: «حبيبي، اهدأ!».

- لن أهدأ، لا يمكنني أن أهدأ، أحدهم يعبث برأسي، لا يمكنني أن أهدأ.

بعد فترة قصيرة من الصراخ المتواصل بين دموع أمي المغلوبة على أمرها.. تمالكتُ نفسي ونهضتُ، نظرتُ إلى الساعة، كان عقرب الثواني يجري مذعورًا ليعانق العقربين عند تمام السابعة صباحًا.

مسحتُ وجهي بيدي، لعلي أمسح عن عقلي صور الليلة المشؤومة، ارتديتُ ملابسي على عجل، وأسرعت إلى مكان عملي.

كانت الشوارع مزدحمة بجنون، والكل يثرثر في أذني بسخافاته، بضحكاته السمجة، بمشكلاته التافهة، كل منهم يتصور أنه مركز العالم، وأن مشكلاته التافهة تلك جديرة أن يسمَعَها الجميع ليطرقوا أسفًا ويظهروا التعاطف والدعم.

لا أحد يشعر بي، لا أحد يعلم شيئًا عما يدور في رأسي، عن أحلامي الشيطانية وما تفعله بعقلي المكدود.

دخلتُ الشركة قبل موعدي بقليل، لمحني المدير على الباب، ابتسم ابتسامة طفولية مرتبكة ورحَّب بي، ثم دعاني إلى حجرة مكتبه، رافقته قلقًا، يبدو أن ثمة شيئًا قد حدث.

- لقد صدر قرار بنقلك إلى مكان أنسب لكفاءتك.

قالها ببطء مفتعل.

تحسستُ رأسي بارتباك.

- ولكن..

- لا داعي للجدال بخصوص ذلك الأمر، هيا لتتعرف على مهامك الجديدة.

سرتُ بجواره حانقًا في رواق الشركة الأزرق المزدحم، بدا الرواق طويلًا جدًّا مملوءًا بالمنحنيات كثعبان، كان رأسي يدور بينما أحاول التظاهر بالثبات، حتى توقف المدير أمام جناح كبير كُتِبَ على بابه «الأرشيف».

دخلنا معًا، فأشار بيده إلى آلاف الملفات متباينة الألوان.

- ستكون مسؤولًا عن كل تلك الملفات.

دارتِ الدنيا بي بشدة!

- إنه الحلم السخيف مرة أخرى، لن أدعَه يهزمني هذه المرة، لن أُلدغَ من نفس الجحر للمرة الثالثة.

صرختُ في جنون، ولطمتُ الرجل على وجهه، ثم لطمتُ نفسي، ورحت أردد بأعلى صوتي:

- استيقِظ يا نجيب، استيقِظ من الحلم يا نجيييييييب.

تراجع مدير الشركة إلى الوراء بسرعة وقد اتسعت عيناه من هول المفاجأة- يده على خده وقد انقلبت بشرته إلى الحمرة القانية.

مرت لحظات قصيرة ثم عادت له ابتسامته الطفولية المرتبكة، وهمس لي مترددًا: «إذا كان الأرشيف لا يعجبك، فلا داعي له مطلقًا».

ضحكتُ بهستيريا: «حسنًا أيها الكابوس اللعين، ها هي نهاية مختلفة هذه المرة، ولن أقضِيَ الليل كُلَّه أفتش بين أكوام الورق».

لاحظتُ أنَّ المدير يشير إلى شخص ما خلفي، التفتُّ، فوجدتُ رَجُلَي الأمن يقيداننني بلا كلمة واحدة، حاولتُ المقاومة، لكنهما اصطحباني عَنوةً إلى مكتب المدير.

شعرتُ باختناق شديد وعاودتُ الصراخ: «استيقِظ يا نجيييييب، استيقِظ يا نجيييييب».

بعد قليل جاء ثلاثة من الغرباء واقتادوني مرغمًا إلى سيارة كبيرة لها صندوق خلفي تشبه سيارات الترحيلات الخاصة بالسجون، شعرتُ أني عاجزٌ عن احتمال ذلك الكابوس الجاثم على صدري، فلم أكُفَّ عن الصياح طيلة الطريق، حتى توقفت السيارة فجأة أمام المشفى النفسي القديم على طرف المدينة.

- متى توقظني أمي فتنقذني؟ أيقظيني يا أمي.

رحت أصرخ بلا انقطاع حتى تقطعت أنفاسي فسكت.

مضى وقت طويل، وما زلتُ أدق جدران الحلم اللعين، وأمدُّ عنقي من بين قضبانه، لكن أمي لا تحاول إيقاظي أبدًا.

الطريق

سقط الكوب من يدي حين صرخت جارتي فجأة، وضعت يدي على صدري محاولة تهدئة قلبي، تنهدت في ضيق ثم لملمت بقايا الزجاج بلا اكتراث، فقد تعودتُ، كما تعودَتْ هي، على وقع كف زوجها الغليظ على جسدها الهزيل ووجهها ذي العينين المتمردتين، على العموم، هي امرأةٌ غبية، تُصرُّ على إثارة المشكلات طوال الوقت، بحجج واهية.

بالأمس، اشتكت لي من ضيق مسكنها، مع أنَّ الحقيقةَ أنَّ الكوخ الصفيحي الذي تقطنه أوسعُ كثيرًا من كوخي، كما أنَّ بابَه متقنُ الصنع، فلا يكشفُ معظمَ محتويات الداخل للمارة كبَابي، بل يكشفُ فقط أقلَّ من رُبع مساحة المكان، كما أنَّ لديها وسائدَ طرية وموقدًا يعمل بالغاز، لا أنكر أنها تبذلُ مجهودًا كبيرًا لإشعاله، وأنه أصابها بحرق صغير بوجهها وذراعها العام الماضي، إلاَّ أنَّ ذلك لا يعني أنْ تتذمرَ طيلة الوقت وتنسى امتيازات كبيرة قد حظيتْ بها.

ها هو صراخُها قد هدأ، يبدو أنَّ زوجَها قد خرج ليبحثَ عن رزقه بين أكوام القمامة، فهو يكسب كثيرًا من هذا العمل، حتى إنني سمعتُ أنه قد نوى شراءَ تلفاز مستعمل، لا أعلم ما الفائدة من إنفاق مدخراتك في قليل من المتعة، إذا كان الكثيرُ منها بانتظارك في الجنة!

والأعجب أن تلك المرأةَ الحمقاءَ تُلح عليه طيلة الوقت أنْ يُكملَ دراسته وأنْ يبحثَ عن عمل أفضل! يبدو أن لا شيءَ يرضيها، لا أعلم لماذا لا تَقنع النساءُ أبدًا!

رفعت زجاجة الماء إلى شفتي المتشققتين من كثرة الجفاف، وجدت صعوبة في الابتلاع، فقد كان الماءُ مختلطًا بالرمل وحبيبات الطين، لكن لا بأس، فذاك أيضًا يروي العطش، عانيتُ كثيرًا حين انقطعت المياهُ عن المنطقة المجاورة، تلك التي نملأ منها أوانينا، عندما يقضي الإنسانُ وقتًا طويلًا بلا قطرة ماء في بيته، وتصبح رشفةُ الماء غالية، ليس من المنطقي مطلقًا أن يشتكِيَ يومًا من بعض الشوائب العادية، فالاعتراضُ طوال الوقت عادةٌ سخيفة.

توكلت على الله وخرجتُ من عشتي، حاملة فوق رأسي طَسْتًا كبيرًا ممتلئًا ببضائعي، سرتُ على الطريق الوعرة، على طرف لساني طعومُ الأمنيات الحلوة.

كانت الشمسُ حامية، والطست ثقيل على رأسي وذراعي كلَّت الارتفاع، لكنني كنتُ أحلم على طول الطريق بظلال الجنة ونعيمها، فلا أُلقي بالًا لوعورة الطريق... إلى أنْ وصلتُ إلى سوق

المدينة.

تربعتُ كعادتي في بقعتي المفضلة عند مدخل السوق، لأستنشِقَ رائحة البرتقال المنعشة، فالرائحة أحيانًا تشبع الحواس بالضبط كالطعام، هكذا أقنعت نفسي منذ سنين، وبدأت أنادي على بضاعتي بصوتي الضعيف، لا يهم، ففي الجنة يعود إليَّ شبابي، ويتحول ذلك الشعرُ الأشعثُ الأغبرُ إلى خصلات حريرية سوداء، ويعود ذلك الصوتُ الضعيف قويًّا شابًّا، هكذا أخبرتني ابنتي قبل أنْ يقتلَها ذلك السائقُ الأرعن.

يبدو أنَّ أحدًا لا يريدُ الشراءَ مني اليوم، ربما منعتْهم شمسُ الظهيرة الشرسةِ من النزول، لا بأس، مزيدٌ من الانتظار لن يصنَعَ فارقًا، فلستُ متعجلة العودة إلى عشتي الخالية، فلا أحد ينتظرني البتة.

ارتجف جسدي حين اخترق أذني فجأة صوتٌ أجش، حاولتُ أنْ أستوضِحَ ملامحَ صاحبه، لكن عيني المريضتين والشمس التي سطعت فيهما أعجزوني، سألتُه عما يريد، فركلَ بقدمه طَستي، وانهالَ عليَّ بِوَابل من السُّباب، حينها تمنيتُ أنْ ألكمه في وجهه، لكن عجوزًا مثلي ليس لها إلا الأمنيات، أما الواقع فاستأثر به آخرون.

طلبتُ منه بِذُلٍّ ضعفي أن يذهبَ ويتركني لحالي، لكنه جمع بضاعتي في كيس كبير، ومضى دون أن يدفعَ شيئًا، نهضتُ صارخة مولولة، جريتُ وراءه، عاجلني بلكمة في صدري، سوَّتني بالتراب، شعرتُ بدوار، وسمعتُ أصواتًا كثيرة حولي تستعيذُ بالله من شرِّ ذلك الضخم الذي سرقني، لكن أحدًا لم يحاول الاعتراض واسترداد حقي.

ابتعد الضخم في أمان تشيعه همهمات مكتومة.

شعرتُ بأيادٍ كثيرة تمتد إلى جسدي، أردتُ أنْ أتكلم، لكن لساني كان ثقيلًا.

حملني بعضُهم إلى الرصيف، وصبُّوا قطرات من الماء على وجهي، بدأتُ أستعيد وعيِي وقدرتي على الكلام، سوف أكون على ما يرام، هكذا هي الدنيا، حدَّثتُ نفسي.

وقبل أن أوَجِّهَ أي عبارة لوم للجميع، سبقوني هم بتوجيه اللوم لي، «امرأة ضعيفة مثلك لا يجب أن تخرج وحدها ببضاعتها دون حماية». «لماذا تكشفين بضاعتك وتغرين بها لصًّا طامعًا».

حاولت استيعاب ما يقال، فقطعتْ زحام العبارات فتاة شابة تبدو قوية واثقة عيناها المليئتان بالتحدي تتنافران مع مظهرها الفقير للغاية، طالبتهم بالابتعاد وبدأت بمساندتي للنهوض.

عدتُ إلى عشتي بمساعدتها، وقد أصرتْ على اصطحابي وعرضتْ أنْ تبيتَ معي حتى تتحسنَ حالتي، في الحقيقة، كنتُ في حاجة ماسة إليها.

تمددتُ من فوري على فراشي، متجاهلة قرصات الجوع مستغيثة من آلام جسدي، أما هي فتكوَّمتْ في هدوء في ركن العشة.

في الصباح، استيقظتُ على صراخ جارتي، تبسمتُ ضاحكة، فالعالم يتغير كثيرًا، إلا صراخ الجارة، بالنسبة إليَّ قد صار يعني الوطنَ والبيت، لم أعد أتخيل نفسي أسكن بجوار امرأة محترمة، غرقتُ في موجة ضحك أيقظتْ ضيفتي.

سألَتْني طعامًا، أجبتُها أني لا أملك إلا خبزًا جافًّا.

نظرتْ إليَّ بإشفاق وعطف، لأول مرة أرى تلك النظرة في عينين قريبتين، فقد اعتدتُ ألَّا يشعُرَ أحدٌ بوجودي في الدنيا.

أطلقت زفرة حارة وصبتْ لعناتها على الحكومة، أسعدني أنَّ ثمةَ مَنْ ينفعل من أجلي، لكني قلتُ لها الحق أنَّ الحكومةَ مشغولةٌ بالوطن، صرختْ بغضب: نحن الوطن!

لم أفهم مقصدَها، ولكن المؤكدَ أنني لا أفهم علاقتي بالمدعو الوطن.

خرجت الطيبةُ وهي تغمغم غاضبة، ابتسمت في إشفاق، إنها حماسة الشباب والأمل في إصلاح الكون، غدًا تتوالى ضربات الحياة حتى تفهمَ أن البقاء حيًّا إنجازٌ لا يستهان به، أما تغيير العالم فمادة خصبة لحكايات المساء.

عادت الفتاة بعد وقت طويل تحمل بعض الطعام، تناولناه ونحن نتجاذب أطراف الحديث، كانت الفتاة محتقنة بالألم ينهش قلبها وحش الحرمان، الحرمان من كل شيء تقريبًا، حتى إنني شعرت للمرة الأولى أني لست أتعسَ امرأة في العالم.

قررت أن أسرِيَ عنها وأمنحَها بعض الطاقة الإيجابية عَلَّها تستصغر آلامها، فحدثتُها عن الجنة، جزاء الصابرين، حدثتها عن ظلالها وأنهارها وفاكهتها، رمقتني بنظرة طويلة، ثم

انفجرتْ ضاحكة، نظرتُ إليها بذهول، اقتربتْ مني بعينيها اللامعتين وهمستْ: «الجنة؟ الجنة ليست أنهارًا وطعامًا كما تحلمين، إنها أحلام الجائعين».

أطلقت ضحكة ساخرة ثم استطردت: «كل المتعبين يحلمون بالجنة، جنة السجين السياسي محكمة عادلة وقاضٍ لا يضيع لديه حق وحرية مطلقة، جنة السيدة العقيمة بستان يزهر أطفالًا، الجنة التي تحلم بها الفتاة التي مضى قطار العمر وتركها وحيدة ليست سوى فارس، فقط فارس، جنة الضعفاء المهمشين هي العدالة واسترداد الحقوق، أما الأقوياء في عالمنا فلا يفكرون كثيرًا فيها، فهل تصدقين حقًّا أن ثمة جنة؟».

صدمني سؤالُها، فأنا لم أُشكَّ يومًا في ذلك، فهكذا لقنوني صغيرة في المدرسة، آمنتُ بذلك في البداية كما فعل الجميع حولي، وازداد إيماني حين أدارت لي الأيام ظهرها، وركلتني من عَلٍّ، لينتهِيَ بي المطافُ في كوخ صفيحي، وحينها صار الإيمانُ هو ملاذي الوحيد!

فإذا لم يكن هناك جنةٌ، ولا عوض عن كل ما أنا فيه من مشقة وحرمان، ولا حسابٌ لسارق الأمس ولكل الذين آذوني، ولكل مَن تسبب في ضياع عمري، فكيف يمكن أنْ أحتمِلَ حياتي وأرضى بها؟ كيف يمكن أن تهدأ نيرانُ قلبي؟ أينتهي كل ذلك الجحيم إلى لا شيء؟! لا شيء؟ مستحيل، كيف تجرؤ تلك اللعينةُ على هدم حلمي؟

هجمتُ على الفتاة، فجذبتُها من شعرها ورحت أضربها بكفي الهزيلة قدر جهدي حتى طردتها من عشتي، كانت الفتاة تصرخ وتكرر السؤال: «ماذا فعلت، ماذا فعلت؟». أحقًّا لا تعرف ماذا فعلت؟ حسنًا لا يهم أن تعرف، فلن أسمحَ لأحد أبدًا أن يحرِمَني من حلم جنتي، كل ما أملك.

أغلقتُ بابي غاضبة فأصدر صريرًا عاليًا، إنها المرة الأولى التي ألاحظ فيها أنه يحتاج إلى تشحيم.

توجهت إلى طستي النحاسي الذي أخزن به الماء وقد نويت الوضوء، لم يكن ثمة ماء، لا بأس، تيممت حانقةً دون أن أفهم مصدر النار التي اشتعلت داخلي.

شرعت في الصلاة، تتقاذفني ألف فكرة، وحين لامست جبهتي الأرض، أغمضت عيني بقوة، وسحبت نفسًا عميقًا إلى صدري، محوت من عقلي كل معنى حتى بات صفحة بيضاء، لا شيء فيه سوى رغبتي في الوصول إلى الله.

أحسست كأن روحي العطشى تغزل حبالًا فتمدها إلى السماء وترتقي، تصعد، وتصعد، وتصعد.

بدا ارتفاع السماء لي لا نهائيًّا، وأن الله بعيد، وأن حبالي قصيرة عاجزة، انسلت روحي تدور في أرجاء الوجود كماسح ينقب عن شيء ضائع، يدور ويدور، وأنا أبكي وأبكي، لا شيء أريد سوى اليقين، لا شيء أريد سوى الثقة بيوم الحكم.

توقفت عن الصلاة حين تبددت آخر ذرة طاقة في جسدي وروحي المنهكين، مددت جسدي بهدوء وكأني أخشى أن أُشَوِّشَ على سلام ما لف عالمي، وغرقت سريعًا في النوم.

قضيتُ تلك الليلة أحاربُ أشباحًا، كانت تقفُ على بوابة كبيرة من الذهب، وتمنعني الدخول، لم يكن بيدي أي أسلحة، لكني كنت أدفعهم بيدي العارية باستماتة، أدفعهم فيدفعوني، أرتمي على الأرض، تتكسر عظامي من الألم، لكني أعاود النهوض، مستميتة على العبور من البوابة الكبيرة.

في الصباح، كنتُ مرهقة، جفناي متورمان، وعظامي تبدو كما لو أن دبابة قد عبرت فوقها، أحسستُ أن عمريَ قد زاد ضعفين، متى غزت وجهي كل تلك التجاعيد؟

قررتُ البحثَ عن رزق، ارتديتُ ثوبي الأسودَ كأيامي، وخرجتُ إلى الطريق الترابية، كانت أكثرَ وعورة من ذي قبل، وكانت الشمسُ قائظة أكثر مما عهدتُها، ولأول مرة لا أطيقُ الطريق.

أحسستُ أنني أنصهر وتذوبُ أجزائي وتختلطُ بالصخور. أحسست أني أخطأت الطريق، ما أصعب التيه!

تعثَّرتُ فجأة، فدستُ بقدمي على زهرة صغيرة نبتتْ بين الصخور، فمزقتُها في لحظة، سرتُ خطوات بعدها، ثم توقفتُ والتفتُّ خلفي، تأملتُ زهرات أخرى نمَتْ في أمان لم يُصبها سوء، هزَزْتُ رأسي في حيرة.

واصلتُ طريقي الوعِرَة بلا روح، أتخبطُ بين لفحات الهاجرة، يلاحقني عجزي، ضحكةُ ابنتي، لِصُّ الأمس، وزهرةُ الطريق.

لا أحد

الهزيع الأخير من الليل، حين تتمدد لحظات الانتظار.. وتتمدد، أنتظر مُكرهًا خطوة عقرب الثواني الثقيلة لِتَدُكَّ عظام رأسي، هل بَقِيَ في العالم صبر؟

يخطو العقرب فيتردد صدى خطوته بين جبال اليأس الجاثمة على صدري منذ عرفت طعم الانتظار، يرتد الصدى صاعقًا فينحني قلبي خوفًا..

يخطو على مهل شاهرًا سيفه، تصطف الثواني في طابور الإعدام، تتطاير رقابها في فضاء وحدتي.

يخطو على مهل، كزعيم مافيا ينفث دخان غليونه ببطء، قبل أن يطلق الرصاص على رأس مفزوع.

على مهل، كَنِمْرٍ يترصد غزالًا غافلًا.

على مهل، كطفل مذنب يخطو نحو والده يخشى الوصول، ما أصعب الاعتراف!

على مهل، كصديق قديم قابلته مصادفة بعد فراق عمر فهرولت نحوه والشوق يحدوك، فتمهل، لا يذكرك ولا يهتم لذلك.

على مهل، كمحكوم عليه بالإعدام في طريقه نحو المقصلة.

يخطو العقرب، على مهل، وأنا راقد في فراشي أحدق إلى السقف، تتعاقب أمامي الصور، لا صوت أسمعه سوى دقات العقرب تقطع أزيز أسراب الذكرى.

الحياة قصيرة... لكن الانتظار يمنحنا عُمرًا ثانيًا، عُمرًا من العذاب.

هكذا أَلِفتُ ليلِي، فلا أذكر كيف بدأ الأمر بالتحديد، صور أمي وأبي باهتة، بعيدة كبعدي عن ذلك العالم، عمامة أبي البيضاء الملفوفة بلا عناية حول رأسه الضخم، شاربه الكث، لحيته غير المهذبة على الدوام، عينيه اللتين يختلط فيهما الغضب بالانهزام لِمُرِّ الحياة، تجاعيد عينيه وجبهته التي كانت تضيف إلى عمره سنوات، صوته المبحوح الذي كان يتردد بين العلو والانخفاض كأنما هو في صراع لا يخمد بين الثورة والاستسلام.

أمي، ضفائرها القصيرة المجدولة بلا اهتمام، ثوبها الواسع القصير الذي يظهر من تحته سروال رجالي قديم، صوتها الخشن الغاضب على الدوام، وكأنما وقعت إقرارًا بالتنازل عن أنوثتها منذ نزلت إلى ميدان الحياة، أنا، نفسي القديمة، تحوم صورها المهتزة في سماء ذاكرتي، طفولتي منزوعة البراءة المثقلة بالأسى، مراجيح المولد التي كنت أراقبها من بعيد دون أن أجرُؤَ على إعلان رغبتي في اللهو، رفاق الحي الصاخبون على الدوام الذين نجحت مرات معدودة في اختلاس بعض الوقت لقضائه معهم.

تعاقب الأيام، حتى فقدت أبي ثم أمي وغربتني البلاد، لم يبقَ لي سوى ميراثي من أبي، تلك العربة الخشبية الثقيلة ذات العجلتين.

ربما هي ثقيلة بالنسبة إلى جسدي الهزيل، لكن الجوع والحاجة يمداننني دومًا بالطاقة اللازمة للدفع، أجوب بها الطرق كل صباح، أنادي بأعلى صوتي على بضاعتي المزجاة، أدور بها وأدور، لا تجرؤ قدماي المتورمتان على الشكوى ولا كتفاي المنهكتان من الدفع على قول الآه، تمر عيون كثيرة فتلقي نظرات غير مبالية على بضاعتي الراقدة في يأس لا تجد من يشتهيها، حتى إذا داعبت الأنوف رائحة الشواء تدفعهم بطونهم تجاهي، بينما بطني الخاوي تدفع العربة بلا ملل، هذا هو قانون الحياة.

«هات واحدة يا عم»، أي عم أنا؟ ذلك لا يهم بالمرة، المهم أن أتخلَّصَ من بعض بضاعتي وتصطك في جيب ثوبي الواسع بضع عملات.

وفي نهاية الليل أَجُرُّ قدمي جَرًّا منكفئًا بصدري وذراعي المكدودين على عربتي إلى بيتي الصغير على أطراف البلدة، أتمدد في صمت يقطعه من حين لآخر بضع آهات خافتة، أعلم أن أحدًا لن يسمَعَها وأن يدًا لن تربت علي، لكن الآه قدري، حتى يبتلِعَني محيط النوم فأسبح في أعماقه المظلمة حاملًا فوق ظهري عربتي الثقيلة.

وفي الصباح، أشق طريقي من جديد، لا أحد في القرية يعرفني ولا أستطيع الاختلاط بالآخرين، فبيتي خاوٍ، وبطني، وقلبي أيضًا، لا شيء لدي لأمنَحَه لصديق.

لا أذكر متى كانت آخر مرة اهتم بأمري أحدهم، ربما كان ذلك قبل عدة سنوات حين تعثرت عربتي في أثناء سيري على حافة الترعة فسقطت، وفقدت وعيي حين ارتطم رأسي بحجر، ربما كان الوقت مناسبًا للموت، فأنا لا أخشى الموت قدر خشيتي للحياة، ولماذا الموت مخيف؟ هل ظلمة القبر ووحدته هما أصعب ما في الأمر؟ أم أن فقد كل شيء دفعة واحدة حتى حياتك

نفسها هو الأصعب؟ لكنني لن أكون هناك لأخشى ظلام القبر، ولم أمتلك يومًا ما أخاف فقده، كل ما في الأمر أنني سأغدو نقشًا على الحجر، والنقش لا يعرف الخوف.

الحياة إذًا أحق بخوفنا، فنحن هنا أعصابنا حية مستعدة للاحتراق حزنًا، وعيوننا حية جاهزة للبكاء حد العمى، الخوف أحق بالهاربين إلى الحياة، لماذا لا نمتلك شجاعة الموت؟

على كل حال فقد أنقذني من الموت مَن تَوَهَّمَ أن الحياة خير لي، وفي المشفى سمعتهم يقولون إن «حالة» جديدة وصلت إلى الطوارئ، فهم لم يعرفوا لي اسمًا، المهم أنني تلقيت الرعاية اللازمة وعدت كُرهًا إلى الحياة، لا بأس بمزيد من الألم في بضع ليالٍ طوال.

كالعادة تأخذني الذكريات حتى تثقل جفوني، لا بأس، فلدي شعور مختلف تلك الليلة أن عليَّ أن أفعلَ شيئًا ما، شيئًا لم أفعلْه منذ سنوات طويلة، ورحت في النوم.

وفي الصباح، انتابتني رغبة لذيذة أن أجلس في المقهى الشعبي بالحي القديم، أن أندَسَّ لمزقة من العمر بين الخلائق على حين غفلة من وحدتي.

عدلت طاقيتي فوق رأسي، صففت شاربي ولحيتي بأصابعي، نفضت تراب الطريق عن طرف ثوبي، هكذا صرت في كامل زينتي، وتوجهت لفوري إلى هناك.. يلفني الحنين.

اخترت مقعدًا على طرف قَصِيٍّ من المقهى، جلست متصنعًا الثقة بينما داخلي غارق في الارتباك، ترددت قليلًا قبل أن أشير إلى النادل، خطا نحوي وهو يتأمل بحذر وجهي الذي بدا غريبًا على المكان، ثم سألني عن طلبي، أخبرته بخجل أن يُحضِرَ لي كوبًا من السحلب.

علا بصوته قائلًا: «واحد سحلب للزبون هنا».

حسنًا لقد صرت «زبونًا»، هذا أفضل من كوني «حالة» بالتأكيد. أخفيت ضحكتي بكفي الكبيرة المتشققة، وشرعت أتأمل خفية ما يحدث حولي، كان الجميع يتحدثون في نفس الوقت، لم تسترع انتباهي الأحاديث المثارة، كلها أحاديث عادية عن تنافس سوق العمل ومؤامراتها، مشكلات الأبناء في المراهقة، مجاميع القبول بالجامعات، قليل من السياسة، وبعض أحاديث الهوى، تلك الأشياء التي لا مكان لها في عالمي الصغير ولم أفكر فيها يومًا. كان الجميع يثرثرون في نفس الوقت الذي يلقون فيه زهر الطاولة ويحركون أوراق اللعب، وكأن أصابعهم تمارس ذلك النشاط بلا روح، بلا حماسة أو لذة، بلا اهتمام بمكسب أو خسارة، مجرد ملء لفراغات الحديث حتى تطل فكرة، ولفراغات الحياة حتى تنقضِيَ الساعات.

بدا لي المشهد باردًا جدًّا لا حرارة فيه سوى نبض وحيد، ذلك النبض الذي كان يأخذ أذني أخذًا كل حين.. هو رنين الأسماء، حين يذكر أحدهم اسم صاحبه... ينسحب حد الحروف على نياط القلب.. فأرتجف.

لا أحد منهم يعي لذة أن يُذكَرَ اسمك على وجه الخصوص فيقال بود وأنت المقصود به، لا أحد غيرك، لا أحد يدرك حلاوة أن ينظر أحدهم في عينيك مباشرةً، ينطق حروف اسمك في لحظة احتياج إليك وثقة بك، تصير مهمًّا جدًّا بالنسبة إليه، بل تصير العالم كله، يحكي لك همه وينتظر كلماتك بشغف، يقاطعك بين الفينة والأخرى منفعلًا، ناطقًا باسمك من جديد، يا الله! المسافة شاسعة بين كونك موجودًا وأن تشعُرَ بوجودك.

بعد انتهاء حكاية كل شيء، تأتي لحظة من العمر، كل ما يشغلك ألا تنسى موعد الدواء، تؤلمك مفاصلك... أكثر مما تؤلمك الذكريات.

ستنسى كل هؤلاء الذين مَرُّوا كرامًا بأيامك، وسينسونك.

سترجو وجودَ شخص واحد على هذه الأرض بجوارك، شخص لا يسأم تكرارك لذكريات قديمة قُتِلت حكيًا، شخص لا يزعجه حديثك عن أشياء في غاية التفاهة، في غاية اللافائدة.

فقط يسمعك، فأنت جائع للحديث أكثر مما يمكن تصوره.

أنت محتاج أن تنظر إلى عينيه، فذلك يبعث في أوصالك المتيبسة دفئًا وحياة.

ستضحك بأعلى صوتك يا صاحب الوقار، على نكاته التي ربما لم تفهمها، أو حتى لم تسمعها، لكن ضحكاتكم معًا ستكون الخيط الوحيد الذي يربطك بالحياة.

ستحتضن كفه في كل لقاء، تتحسس نبضه بلهفة، لتتأكَّدَ أنك حيٌّ.

اهتز كوب السحلب في يدي حين ارتعدت وبدا لي أن وقتًا طويلًا قد مَرَّ بي في ذلك الركن، ربما وحدتك بين الزحام أكثر ثقلًا من وحدتك في غرفة مغلقة.

قررت الهروب من أفكاري فخرجت من المقهى مسرعًا، كهارب في متاهة لا يعرف أين باب الخروج، لكنه يؤمن بحتمية الهرب، لا أعرف كيف حدث ذلك، لكني سمعت صراخ إطارات سيارة على الأسفلت وصوت زجاج يتكسر، ووجدت نفسي مكومًا بين عدد من الأجساد التي اختلطت دماؤها مع كثير من الألم، نظرت إلى ساقي النازفة بغزارة وعرفت أنها النهاية.

وماذا تعني نهاية حياة بلا حياة؟ لا شيء بالتأكيد.

نشرة الأخبار بالتلفاز، بالتأكيد ستذكر الحادث الأليم، سيضعون شريطًا أسودَ على زاوية الشاشة، وينعون الضحايا ببالغ الأسى وسيذكروننني بالتأكيد، كرقم، ربما خمسة، أو ربما ثلاثة، ثم أدفن في مقابر الصدقة بلا حجر عليه اسمي أو قليل من الزهور، حتى الرقم بعد انتهاء النشرة لن يذكره أحد، فربما يحين موعد المسلسل اليومي.

أغمضت عيني عن العيون التي حاصرتني، لا شيء يشبه أن تعيش وتموت بلا اسم، مزدحمة حياتك باللاشيء، الأصوات تخفت وتبتعد، صوت أبي المبحوح يعلو ثم ينخفض، صوت أمي الغاضب يناديني: «سالم».

نعم.. نعم.. هو سالم، تذكرته الآن. ارتفع صوت غليظ: «انقلوا الجثة إلى العربة».

الجرس

هذا الصباح صرت مخلوقًا آخر، تحررت، لن يفهم أحدٌ أبدًا ماذا يشبه ذلك العالم الذي جئت منه... عالم الصمت، سجن الصُّم.

للصمت قضبان لا تُرى، طالما مددت يدي خلالها محاولًا الإمساك بطرف الحياة، لكن المسافة جَدُّ بعيدة.

كنت أقرأ عن الإيقاع وأشاهد عروض الرقص، وكيف يتمايل الجسد في حركات تبدو محسوبة ومرتبة زمنيًّا كي تواكِبَ ذلك المسمى بالإيقاع. كنت أراقب راقصة البالية وهي تؤدي عروضها في عالمي الصامت، كان يبهرني ذلك الضابط الغامض لحركاتها، إنها تصنع بتتابع انثناءات جسدها لوحة كاملة، آه، حيرتني الموسيقى.

يحرك المغني شفتيه ويضم يديه مغمضًا عينيه فيتقافز الجمهور ويشير بالأذرع ويحرك الشفاه تفاعلًا وتأثرًا، وتنهمر الدموع من عيون الجميلات، تُرى ماذا يشبه صوت الغناء؟ وكيف له أن يهز أرواحهم هزًّا؟

لم أكن يومًا قادرًا على تخيل كُنْهِ الأصوات، سألت كثيرًا عما تشبهه، لكن الجميع فشلوا في إيصال الفكرة لي، لا أحد لديه تعريف محدد للصوت، لا أحد يمكنه شرحُ ماذا يشبه الغناء، الهمس، النواح، الضحك، كيف يبدو الصفير، الخرير، الرعد، المواء والزئير.

لم ينجح أحدهم في إخباري لماذا بعض الأصوات تبعث على الخوف ولماذا بعضها يبعث على السكينة، لماذا صوت الموسيقى ساحر، أين بالضبط موطن الجمال، وكيف تفهم ذلك الأذن وتصدقها الروح... الأذنُ، يا لها من لغز!

كانت حياتي تجري كفيلم صامت، كل شيء يتحرك كالمعتاد، لكن بلا صوت، أراقب العالم من ثقب إبرة، حالة شجار، تعبيرات وجه مفزعة، في هدوء تام. انهيار مبنى على ما حوله، بلا صوت، زحام شديد وتصادم وتدافع، بلا ضجيج. حفل زفاف يتمايل فيه الكل وتعلو وجوههم الفرحة، بلا صوت، جدار الصمت يعزلني عن العالم، أقف خلفه عاجزًا متحيرًا، أطرقه بقبضتي، فلا أسمعها، ولا يسمعها العالم. مسموح لي بالرؤية، مسموح لي باللمس، هكذا أتحقق أنني ما زلت حيًّا، أما الشفاه، فتتحرك بلا معنى أدركه، هذه اللغة لم تخلق لي.

كان ذلك قبل أن يضع الطبيب السماعة في أذني، لحظة اكتشاف الحياة، شعرت بانقباضة رحم أمي على جسدي تعاد من جديد في لحظة ميلاد مدهشة، يستحيل أن يفهم أحدهم تلك اللحظة من عمري كيف مرت.

ثبَّتَ الطبيب السماعة ففتح فورًا نافذة واسعة لي على العالم، نظر مبتسمًا في عيني ليرى تأثير ذلك. هل أسمع؟

كان أول ما سمعته هو صوت أمي، راحت تنطق حروفًا ما وتكررها بلا وعي، ربما هو اسمي الذي لا أعرف صوته، تنهمر من عينيها الدموع بلا توقف، تنظر إليَّ غير مصدقة، أهذا هو صوت الحب؟ هل لكل البشر نفس الصوت؟ أم أن للصوت بصمة كبصمة العيون؟

عرفت الإجابة بسرعة حين تكلم الطبيب، لا، صوت الحب تملكه أمي فقط.

خرجنا معًا من المشفى وأمي مثبتة عينيها عليَّ، ودمع الفرح يسيل بِرِقَّةٍ على خديها.

راحت أمي تكرر نفس الحروف الصوتية كل بضعة أنفاس، وكأنها نسيت كل الكلام، ولم يبق غير اسمي، لحظة ميلاد حياة ليست أصعب اللحظات على الإطلاق، فلحظات البعث أشد كثيرًا على النفس، وها أنا بعثت يا أمي.

كنت أسير على أسفلت الطريق، ممسكًا بكفها كطفل لتوِّه تعلم المسير، يدق حذائي الأرض، أتوقف كل بضع دقائق، إن لخطوي على العالم أثرًا، أتصفح وجوه العابرين، هل تسمعون وقع أقدامي؟ أتشبث بكف أمي جيدًا، فالسير في عالم صاخب للمرة الأولى يحتاج إلى التركيز والتوازن، كالسير على حبل. يطرق سمعي صوت جديد كل لحظة، يجذبني إليه بعنف، أختبر حدسي كل مرة، أستكشف العالم بفضول طفل.

أصوات السيارات، لماذا يقولون إنها مزعجة، ربما لأنهم لم يعيشوا يومًا في عالم الصمت. يمر شريط حياتي أمامي لأعيد قراءة كل ما حدث بلغتي الجديدة.

أتمهل، أترك يد أمي، أحاول أن أثبت أنني يمكنني الخطو وحدي دون أن تربِكَني الأصوات، أخطو على الأرض برفق، أنصت بشغف لسيمفونية الوجود.

ارتجف جسدي حين صَكَّ سمعي بكاء طفل، توجهت نحوه مشيرًا بلا إرادة إلى شفتيه الصغيرتين، لطالما خبرت طعم ملح الدموع، لكن صوت البكاء اجتاحني، لقد عرفت أذني قبل أن ألتفِتَ إلى أنه صوت الحزن. تُرى كيف عرفت؟

أخطو من جديد، أحرك أصابعي على سترتي الصوفية، ألمسها بباطن إصبعي مرة، أخدشها بأظفري مرة، كل لمسة تصدر صوتًا مختلفًا؟ يا الله.

حتى السقوط، عرفت أن له صوتًا، إنه صوت الهزيمة.

تلك السماعة في أذني ترهقني، تذيب أجزائي، لا يمكنني مقاومةُ البكاء. تأخذني الأصوات فترمي بي داخل إعصار، مزيج من الفرح والدهشة والخوف، أَلُفُّ فيه بلا توقف، ماذا يحدث لي؟

دخلنا بهو البيت، وبدأنا نصعد السلم، كان لوقع خطانا صدًى متداخلٌ.

«آه» قلتها مرة فسمعتها مرتين، قرأت عن الصدى في طفولتي، رحت أدق السلم بكعب حذائي، أنتظر الصدى، أضحك ملء فمي، «آه»، اعذرني أيها العالم أني أتصرف بحماقة، فلا صوت يعلو فوق صوت الحياة.

لا أحد يمكنه إيقافُ جريان النهر، فتحتُ الباب بالمفتاح، كان لدخوله صوتُ التردد، ولانفراجة الباب صوت الانتصار. هكذا قالت أذني.

رحت أمسك بكل شيء أجده في طريقي، مفرش الطاولة البلاستيكي، أَحُكُّ طرفيه فأسمع صوتًا يضحكني، فتدمع عيناي، أدق خشب الطاولة برفق، ثم بقوة، ثم أقوى، أصوات، أصوات، أصوات.

ضحكت بشدة ثم وقعت على الأرض ودفنت وجهي بين كفي وأجهشت بالبكاء.

أمي لا تتكلم، فقط تنظر إليَّ وتردد نفس الحروف الصوتية. هل يمكنني أن أجمع في كفي صوت أمي كما كنت أجمع رسائلها؟ هل يمكن أن أخزن في أذني صوت أمي لأعيد سماعه مرات كثيرة كما كنت أقرأ كلماتها مرارًا في لياليَّ التي تجرعت فيها علقم الوحدة وبؤس الصمت؟ هل لي أن ألمِسَ صوت أمي؟

رحت أصفح أوراق الكتب صفحًا، طعم الكلمات مختلف ببهار تقليب الورق.

فتحت النافذة برفق، وقد عرفت أن لذلك صوتًا، أنصَتُّ بدهشة، أصوات رقيقة، يبدو أنها زقزقة العصافير، وهذا الحفيف، هل هو صوت أوراق الشجر بين يدي الريح؟ للطبيعة لغة وموسيقى، أيها العالم، لأول مرة ألقاك.

جلست على الفراش مطرقًا، أحاول استيعاب ما أنا فيه من جنون، تمددت كخارج من معركة، أغلقت عيني محاولًا النوم،

ازدحم صمتي بصوت تكات الساعة المعلقة على الحائط، ربما لا ينتبه الناس بالعادة لها، لكنها في تلك اللحظة كانت معجزتي العظيمة، أرهفت السمع، وحدقت إلى الساعة، أتابع التوافق بين الصوت وخطوات العقرب، هذا هو الإيقاع. حتى رحت في النوم.

كانت أحلامي مختلفة، ليست كتلك القديمة الصامتة، كان عالمًا بلا جدران، بلا حواجز، بلا حدود، استيقظت على صوت أمي، الحروف ذاتها.

فتحت عيني فقبلتني بين عيني ووضعت في يدي شيئًا، لعبتي المعدنية القديمة، التي كانت رفيقة طفولتي، كانت أمي تصر على دسها في يدي من وقت لآخر، ولم أفهم قط كيف ألعب بها.

نظرتُ إلى أمي مبتسمًا، وحركت رافعة اللعبة بتلقائية، فإذا بصوت الجرس يدوي عاليًا.

بقايا البشر

كان اليوم الأول لي في العمل بذلك المشفى الصغير على طرف المدينة، الضباب يحاصر المشفى بالكامل، الثلوج تغطي كل شيء، لا شيء يبدو من النوافذ يتحرك أو يصدر صوتًا، لا شيء غير سكون الموت وغراب أسود وحيد يقف على غصن عارٍ من شجرة ضخمة قديمة، عمرها قارب المئة عام، ضاربة جذورها في تلك الأرض، حتى ألفت ذرات التراب بها وألفتها، شجرة لم تعد مطمعًا للعصافير.

بدأت المرور الصباحي على الجناح المخصص للموتى الأحياء، إنهم المرضى في المراحل الأخيرة من مرض كورونا اللعين، ولا يعني المرور الصباحي أكثر من مراقبة روتينية لخطوات صناعة الموت.

تُرى كم خطوة بَقِيَتْ لكل واحد قبل النهاية؟ فيم يفكر هؤلاء؟ تُرى هل ما زالوا قادرين على التفكير؟ ماذا يراودهم في أحلامهم في رقادهم الطويل؟ هل تحاصرهم صور الماضي وذكريات الطفولة والشباب؟ أم أن ذلك كله أصبح غير ذي معنى لهم؟ كيف يرون النهاية؟ هل هي مؤلمة؟ أم أنها مجرد نهاية ككل النهايات، بلا إيمان، بلا معنى، بلا مشاعر.

حين ترقد في غرفة معزولة عن العالم على بابها علامة الخطر، تنظر إلى الفراغ وتراقب شبح الموت وهو يقترب منك بخطوات بطيئة ثقيلة، تدق أرض عالمك الفارغ ويتردد صداها في أفق الوَحدة.

تنتظر، ثم تنتظر، ثم تفقد قدرتك على الانتظار في اللحظة التي تفقد فيها وعيك، أغلى ما تملك، فتتحول إلى ما قبل الجثة، جسد نابضة عروقه بلا حياة تسكنها.

تحدق إلى جسدك العاجز عيون آلية ترقب علاماتك الحيوية، تقلب جثتك الحية أيادٍ باردة في ساعات محددة وتعتني بها، إنهم ينتظرون شيئًا ما يحدث ليغلق الملف، ويصبح فراشك حقًّا لسجين جديد.

في جناح الموت.. الوجوه شاحبة، العيون مغمضة، الجلد جاف مجعد، العروق هربت منها الدماء، قناع الأكسجين هو سيد الموقف بعد أن بات من المستحيل أن تستقبل الهواء برئتيك

العاريتين، الساعة والهاتف رقود على الطاولة، تلك أشياء يملكها الجميع، لكن لها في حياة كل واحد معنى وأثر مختلف.

المرور الصباحي يعني صراعًا يوميًّا داخل نفس الطبيب ما بين إشفاقه على المرضى المحتاجين إليه.. وخوفه من العدوى التي قد تعني الموت، هو جندي على أرض المعركة، لا هو قادر على إلقاء سلاحه ولا هو قادر على إلقاء خوفه، يقترب من المريض، يمسك بيده.. فيطارد الموت كليهما.

في طفولتي كانت تدهشني شجاعة الجنود في الحروب، كيف يضع إنسان حياته على كفه ويخطو بكامل إرادته نحو الموت؟ كنت أعتقد أن الحياة هي أغلى ما يملك الإنسان، حتى أراد القدر أن أكون جنديًّا في تلك المعركة، فعرفت أن هناك ما هو أثمن من الحياة.

يدور الأطباء والتمريض داخل الجناح بذلك اللباس الواقي الذي يغطي الجسم بالكامل والواقي البلاستيكي الشفاف على الوجه، يبدو الأمر لي ككابوس أو مقطع من فيلم خيال علمي.

النوافذ المفتوحة باستمرار في الجناح رغم برودة الجو توحي بمعنى الحرية، أو ربما الخوف، تُرى هل الموت الرابض في ذلك الجناح عتقٌ من عبودية الحياة؟ أم أنه بوابة المرور لسجن كبير؟

أما حين تخوض تجربة انتظار الموت وأنت وحيد بلا عائلة، فذلك أكثر صعوبة، حين يكون الوحيد الذي سيبكيك طبيب لا يعرفك كإنسان، لكنه كان الشاهد الوحيد على فقرة النهاية في عرض حياتك الغامض الطويل، لم يعد مُهمًّا كيف كان العرض، كل ما في الأمر أنك تحتاج الآن وداعًا لائقًا ودمعة وحيدة صادقة، لا تخَف أيها الوحيد، فلا بد أن يحزن لموتك شخص ما، إن لم يكن طبيبك الذي قسَّى قلبَه مرافقةُ الموت اليومية، فربما يكون العامل الذي يتكفل بجثتك، أو ربما يكون ذلك البطل الذي يضعك بحنان في صندوق خشبي فاخر ثم يضع على شاهد قبرك وردتين، لن ترحل بكل ذلك الصمت والبرود كأن لم تكن يومًا، صدقني، سيحزن من أجلك قلب ما في ذلك العالم، حتى وإن كان قلبًا غريبًا.

انتهى المرور الصباحي وصار لقلبي الكسير حقٌّ في استراحة قصيرة، عاجلني صوت زميلتي تدعوني لمرافقتها لمطعم المشفى، زميلتي الفلسطينية المهاجرة تفتتح صباحاتي بابتسامتها، تعمل بهمة ونشاط طوال اليوم، تبدو كما لو كانت لا تنشغل إلا بعملها، لكنها في الحقيقة ترحل كل يوم حاملة فوق كتفها هَمَّ فلسطين، وبين شغاف القلب شوق لا يهدأ، وفي الضمير إثم الغربة.

كان المطعم ممتلئًا عن آخره، إنها راحة الغداء المقدسة، تشاركت الطاولة مع عدد من الزملاء من جنسيات وأعراق مختلفة، الكل يثرثر ويضحك ويحكي عن أحداث نوبتجية الأمس، قدرة المفارقة على الإضحاك مشترك إنساني.. تمامًا كالحزن والحب، تجْمَعنا المشاعر وإن فرقتنا الأصول.

في الحقيقة لم أستطع مشاركتهم موقفًا مضحكًا، فقد كانت صورة السيدة ميم لا تفارق مخيلتي، تلك المرأة التي تخطت الستين من العمر بقليل، ترقد في الفراش بلا أدنى حركة، شلل كامل بالجهاز العصبي، تحدق إلى ما لا يُرى، تبدو منفصلة تمامًا عن الواقع، قُطعت إحدى ساقيها والأخرى في حالة مزرية، عضلات ضامرة، جلد جاف متشقق، أظفار القدم صفراء اللون معتمة سميكة غير منتظمة النمو، مفصل الركبة والقدم كلاهما في حالة انثناء قهري.. الشيء الوحيد الذي تبقى لها لينبئ عن وجود حياة ما هو تعبير الفزع الجاثم على وجهها بلا انقطاع، فزع ممزوج بالألم مع احتقان بالوجه، يوحي لي أنها رهينة عملية تعذيب وحشية في عالم آخر، وأقسى ما فيها عجزها عن الصراخ أو حتى البكاء.

كم أنت رحيمة بنا أيتها الآه، حين نقولها بسهولة، كيف تخرج من بين الشفاه فتأخذ معها شيئًا من الوجع، أحيانًا يكون كتمان الألم أشد وجعًا من الألم ذاته، عجيب خلقك أيتها النفس الإنسانية.

كان السؤال الذي يلح على عقلي بشدة كلما رأيت السيدة ميم، لماذا هي حية؟ استمرار وجودها بيننا يثير أعصابي، يجعلني ناقمة على كل معنى للوجود، راغبة بشدة في الانسلاخ من ذلك العالم المخيف فورًا.

قطعت أفكاري زميلتي البرازيلية الأصل حين سألت فجأة بصوت يمزج الخبث بالمزاح: «سنلعب الآن لعبة اعترافات، على كل منكم أن يُقِرَّ بأفظع ما فعله في حياته على الإطلاق»، وأطلقت ضحكة لئيمة.

هلَّلَ الزملاء ضاحكين، أعجبتهم اللعبةُ فيما يبدو.

بدأ زميلي القادم من شرق أوروبا.. فاعترف أنه سرق دمية في سن العاشرة ليهدِيَها لحبيبته وزميلته في المدرسة، ضج الجميع بالضحك، نظرت إليه بسخرية.

في العادة قد نخجل أن نتحدث عن خطايانا الصغيرة، حتى نفعل تلك الكبيرة منها، وقتها يصير الحديث عن صغائرنا أمرًا عاديًّا، بل ربما يسبب لنا شيئًا من الراحة الكاذبة.. حين ننجح

في إقناع الآخرين أن اعترافاتنا تلك الصغيرة هي أفظع ما فعلناه على الإطلاق.

تعالت ضحكات زملائي على إثر دعابة أطلقها أحدهم، ثم نظر إليَّ متسائلًا: «ألا تتفقين معي؟»، في الحقيقة لم أكن أسمعه، قبل أن أفكر كيف أهرب من الموقف أنقذني من الحرج رنين الهاتف، الممرضة المناوبة بقسم القلب تخبر عن وفاة مريض، وتطالب الزميل المسؤول بالقيام بالفحص الروتيني لاستخراج شهادة الوفاة.

نظر إليَّ مبتسمًا: «هل فحصتِ جثة من قبل؟».

كان السؤال صعبًا ومباغتًا.

- حدث ذلك مرة واحدة في الشهور الأولى من بداية حياتي العملية، كانت لحظات صعبة.

ضحك زميلي قائلًا: «هل تودين إعادة التجربة؟».

أومأت برأسي علامة الإيجاب، وبداخلي رهبة ومشاعر مختلطة.

تابع: «على كل حال في عنبر كورونا ستصبح تلك المهمة روتينك اليومي تقريبًا».

ابتسم وابتلع آخر دفقة في زجاجة العصير.

تركنا الطاولة بسرعة لنصعد معًا لإتمام المهمة،

دلفنا إلى الحجرة المخصصة للموتى ونبضات قلبي تتسارع، كانت الجثة مسجاة على الفراش في سلام، رجل في الخامسة والثمانين من العمر كما تنص بطاقة التعريف على حافة الفراش، على كتفيه حفرتان غائرتان بين عظمتي الترقوة والكتف تنبئان عن هزال شديد.

تحت كتفه اليسرى مباشرة ثبت مدخل اصطناعي للأوردة، الجلد مترهل مجعد مغطى بالبقع البنية التي تصاحب التقدم بالسن، شاحب الجلد، فاغر الفم، له عينان غائرتان في عظام الجمجمة، وأنف طويل نحيف، وشعر أبيض يبدو كدبابيس قصيرة موزعة بنظام.

تغطي مساحة كبيرة من ذراعيه كدمات تنبئ عن محاولات كثيرة لسحب الدم في أثناء مرضه، في بطنه فتحة اصطناعية للإخراج كأثر معروف لجراحة إزالة القولون كعلاج جراحي لورم، كل تلك المعاناة وفي تلك السن؟!

قال ببساطة: «ها هي الجثة، فلنتأكد من وجود علامات الوفاة»، وشرع في العمل، بينما أنا غارقة في أفكاري.

يااااه، منذ دقائق كان مسماه «إنسانًا»، كان قادرًا على الألم، قادرًا على الصراخ، على الرفض، كان جبينه يتجعد ضيقًا وتنفرج شفتاه عن الابتسامات، كان قادرًا على حك أنفه، كان يسعل وترمش عيناه في اليوم آلاف المرات.

كان ينظر فتُرى بعينيه حيوات وحكايات، كان العرق ينساب على جبهته معلنًا أن ثمة حياة، كان يتقلب في الفراش وتتغير طلته كل صباح.

ثم غزا جسده الموت فسكن كل شيء فجأة... منتهى السكون، توقف القلب عن ضخ الدماء بعد عمر طويل لم يشتكِ فيه كثرة العمل، توقفت مصانع الخلايا النشطة كلها دفعة واحدة، اتسع بؤبؤ عينيه فما عاد قادرًا على الاستجابة للضوء، هرب الدم من عروقه وترسب في ظهره والجنبين، هكذا نعرف الموتى.

أُسدِل الستار على العروض الزاخرة بالأحداث، الدائرة في خلاياه، في وعيه، وفي عالمه.

حين تصمت فجأة طبول الحياة يصبح الصمت أشد صخبًا، ضوضاء في عقول الأحياء، هدير الذكرى ولوعة النهاية.

غرفة الجثث هي المكان الذي يدخله الإنسان واقفًا على قدميه وتدخله الجثة محمولة على ناقل.

كلاهما إنسان، لكن واحدًا منهما فقد شيئًا عظيمًا، شيئًا خفيفًا شفافًا، لا نفهمه، لا يمكننا رؤيتُه، لا نعرف كيف يدخل الأجساد ولا كيف يخرج منها، يسمونه الروح، لا أحد يعلم سوى أنها الفارق الغامض بين عالمي الموت والحياة.

بدأ زميلي بتقليب الجثة، ليتأكد من وجود علامات الموت، يقلبها كما يقلب لوحًا خشبيًّا، بلا إحساس، بلا رهبة، بلا إشفاق.

يفحصها بدقة، بآلية، بقسوة التعامل مع الأشياء، فالموتى لا يتألمون، ولا مشاعر لدى الجثث تجب مراعاتها ولا خصوصية.

هي بضاعة لا أكثر، سيكتب عنها تقريرًا ثم يسلمها للطين حيث تنتظر جيوش شرسة، وباقي الحكاية يعرفها الجميع.

هكذا ينتهي مآل كل البشر، كل السلاطين، كل الأثرياء، كل الذين ادَّعَوا النبوة أو حتى الألوهية حتى عبدهم الناس، كل الذين أصابهم جنون العظمة، كالمهمشين تمامًا.

الكل في النهاية بضاعة في يد موظف، يفحص أجزاءها من منظور فني بحت ليؤكد وقوع النهاية وإغلاق الملف، لا مجال للتراجع وإعادة الامتحان، ثم يلقي بالملاءة على الوجه الجامد، ويعود لإكمال وجبة الغداء ومحادثة زملائه بابتسامة.

لماذا لا يتفكر الناس في بؤس النهايات، لماذا يغفلون عنها ويأخذهم سكر البدايات؟

نولد لنجري بسرعة باتجاه الهاوية، الكل يعلم أنه سيسقط، عاجلًا أو آجلًا، لكنه يستعذب الرحلة، ويتشاغل بكل شيء... إلا لحظة الوصول... اللحظة التي يبتلع الموت فيها كل شيء، كجبل شاهق انهار في لحظة، تسقط الأحلام والمشاعر والمشكلات والعلاقات... لا شيء يستحق كل ذلك اللهاث، لا شيء حقيقي في حياتنا سوى الموت.

«ها نحن قد انتهينا».

قالها زميلي فخرجنا من الحجرة، ألقيت على الجثة نظرة أخيرة ثم أطفأت المصباح، قدر الطبيب أن يحيا في عالم من بقايا البشر والناجين من الموت.

جلس زميلي إلى الطاولة ليملأ خانات شهادة الوفاة، نظر إلى الساعة ليسجل بدقة متى انتهت الحكاية، وقَّع ببساطة، ووضع الختم.

نظر إليَّ مبتسمًا: «الآن صدقت أنه أمر بسيط للغاية؟ ليس أسهلَ من فحص جثة».

جدول المحتويات

إهداء 5

ظل السراب 6

هروب ظل 21

آثام صغيرة 27

الغميضة 32

موعد 38

رحيق الحياة 53

الشبر 60

أوراق امرأة معلقة 63

دمية بلا عينين 69

قمامة فاخرة 75

جدران 79

الطريق 84

لا أحد 89

الجرس 94

بقايا البشر 98